ألبوم قصصى

بلا أجنحة أطير

قصص
دكتور حسين العروسى

رسوم
دكتورة جيهان العروسى

مكتبة المعارف الحديثة
23 شارع تاج الرؤساء / سابا باشا
الإسكندرية

2000

obeikan.com

obeikan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يسعدنى أن أقدم للمكتبة العربية ، لأول مرة ، ألبوم قصصى يتكون من ثمان قصص قصيرة من صميم الحياة ، بعض أحداثها من الممكن أن تقع وتتكرر. كل قصة منها مستوحاة من حدث حقيقى ، عاصرته أو سمعت عنه . الحدث يمثل فى الغالب جزءا ضئيلا من القصة ، لكنه يقع منها موضع القلب من الجسم . حول الحدث تم نسج مقدمة ونتائج وخاتمة للوصول إلى حبكة القصة ، وفى بعض الحالات تركت للقارئ مهمة إختيار خاتمة تروق له .

ولأنى فى الأساس كاتب علمى ، وقد سبق لى كتابة العديد من الكتب العلمية . وخاصة فى النواحى البيولوجية ، بعضها على

obeikan.com

المستوى الجامعى ، والبعض فيه تبسيط للعلوم لخدمة راغبى الثقافة العامة ، وإنى لست من الأدباء القصاصين ، فقد أدخلت فيما كتبت بعض الأفكار والحقائق والتشبيهات والتحليلات العلمية ، راجياً أن تجمع هذه القصص بين المتعة والترفيه ، ثقافة علمية مبسطة تفيد القارئ ٠

وقد تفضلت مشكورة الدكتورة جيهان العروسى بعمل الرسومات المعبرة المصاحبة للقصص ٠

والله ولى التوفيق ٠ ،،،

المؤلف

obeikan.com

المحتويات

رقم الصفحة

بلا أجنحة أطير 7

عاش الملك يحيا الملك 19

ذو المدخنتين 27

ومن الحب ما قتل 37

والميت كلب 51

داز والضبخن 63

سكت دهرا ونطق كفرا 79

عصابة الخمسة 97

obeikan.com

obeikan.com

بلا أجنحة أطير

obeikan.com

بلا أجنحة أطير

نقصت وزناً وازددت نشاطاً ... أتحرك بخفة ... خطواتي واسعة ، ليست كسابق عهدي بها. أستطيع أن أقفز عالياً ولمسافات بعيدة ، كما يفعل حيوان الكنجارو الأسترالي عندما يدب الأرض بأرجله الخلفية الطويلة ، فيقفز قفزة بعيدة ، أو كما تفعل القرود عندما تنتقل من علو شجرة إلى شجرة أخرى مجاورة ، أو كما تفعل حشرات الجراد أو النطاط عند تحركها بين أفرع النباتات.

ها أنذا أسير في الشارع الذي يقع فيه منزلنا .. أدب قدماي في الأرض فأرتفع إلى أعلى متراً أو يزيد ، ثم أنزل ثانية على بعد متران أو أكثر ... ما هذا الذي يحدث !! إنه لشيء عجيب لم أتصوره ، غريب لم أعهده !! كررت المحاولة عدة مرات ، وفي كل مرة أزداد ارتفاعاً وأزداد بعداً ... أقفز حالياً مسافات تزيد عن الخمسة أمتار دون زانة تساعدني ... لم لا أطير كما تفعل الطيور ؟ صدقني ،

لست مجنوناً أتخيل الأشياء ... هى الحقيقة ... مددت يدى جانباً ... حركتهما إلى أعلى وإلى أسفل فى حركات متتابعة ... كأنهما جناحى طائر ... هممت برفع جسمى ورجلى عن الأرض ... لقد نجحت الخطة ... إرتفعت عن سطح الأرض ... واصلت الارتفاع ... صرت أعلى من المنازل إرتفاعاً. المنازل فى حينا ليست بالغة الارتفاع ، فغالبيتها لا يتعدى الأدوار الثلاث. وصلت أقصى ارتفاع تمكنت منه ... أعلو الآن عن أسطح منازل الحى بما يقرب من ضعف ارتفاعها ... لا يتملكنى خوف ولا أخشى السقوط ... أتحرك الآن بخفة ويسر ونعومة دون أن أحرك يدى ... يدى الآن ملاصقة لجسمى ... إنى أسبح فى الهواء كما تسبح الأسماك فى الماء ... أرى المنازل من علو ... يختلف المنظر من أعلى عن المنظر وأنت تسير فى الشارع ... أشعر بسعادة بالغة لم أشعر بمثلها من قبل ... آه لو تمكنت من رسم لوحة ، لكنى لا أجيد الرسم ... آه لو كانت معى كاميرا لألتقط صوراً فوتوغرافية ، إنها فرصة ربما يصعب على تكرارها ... ليتنى أحمل كاميرا فيديو حتى تكون الصور متحركة تنبض بالحياة ، ربما أتمكن من ذلك فى المرة القادمة. أنتقل

من فوق منزل إلى آخر ... أعبر الشوارع أحياناً ، وأطير بطولها أحياناً أخرى ، لا فرق بينى وبين الطيور ، الطيور فى حاجة إلى أجنحة ، أما أنا فبلا أجنحة أطير ... لا تعوقنى سيارات ، ولا توقفنى إشارات ... إذا مررت بعمارة مرتفعة أنحرف عنها أو أزداد ارتفاعاً حتى أعلوها.

أقول الحقيقة ، كان من الصعب على الارتفاع أكثر فأكثر ، فليس لى خفة طائر النورس الذى يحوم حول السفن منتظراً ما يلقونه من بقايا طعام ، ولا سرعة الطائر كبير الأجنحة ألباتروس الذى يعيش فى المناطق الباردة بالقطب الجنوبى والذى يمكنه الطيران حول الأرض عدة مرات فى العام بسرعة قد تزيد عن مائة كيلومتر فى الساعة وأن يعيش فوق الماء لعدة أشهر دون أن تلامس قدماه اليابسة ، ولا حركة الصقر الذى يعلو سريعاً لارتفاعات شاهقة ثم ينقض كالسهم على فريسته ثم يرتفع بها سريعاً إلى مكان آمن يستقر عليه لينهش لحمها ويلتهمها دون ما رحمة أو شفقة.

أنا أختلف فى طريقة طيرانى عن كل ما ذكرت ... أطير كالفراش ... أطفو فوق الهواء ... أتهادى فى حركاتى. الفراش

يطير باحثاً عن زهرة يرتشف رحيقها . أما أنا فبلا هدف أطير وعلى غير هدى أتجه. الفراش خفيف فى وزنه ، أما أنا فوزنى على الأرض ثقيل ؛ يقرب من ستين كيلوجراماً. بماذا أفسر قدرتى المستحدثة على الطيران؟ هل خف وزنى وصرت أخف من الهواء الذى يحملنى؟ هل أنا على سطح أحد الكواكب أو الأقمار الصغيرة حيث تقل الجاذبية ويقل بالتالى وزن الأجسام إذا ما قورنت بأوزانها على سطح الأرض؟ هل أنا بداخل قمر صناعى أو سفينة فضاء مخلخلة الهواء؟ كلا ... فإنى لست محصوراً فى مكان مغلق ولست بعيداً عن أرضنا ... إنى أرى الآن منزلنا من أعلى ... ها أنا أشاهد شارعنا الذى أسير فيه يومياً ... هذه هى مدرستى ... أنا أطير الآن فوق أرضنا وفى حينا ... ليست هناك تهيؤات . إنما هى الحقيقة ... أرى كل شىء بوضوح ... أنتقل من شارع إلى آخر . ومن حى إلى حى آخر.

أنا الآن أطير فوق حى جديد ، لم يسبق لى معرفته ... الأماكن لا أعرفها ... لا توجد معالم واضحة ... كل شىء غريب ... أرى داراً للسينما لم أسمع عنها من قبل ... هل أستطيع النزول إلى

الأرض؟ نعم ، إنى أهبط الآن ... لامست قدماى الأرض ... الشوارع خالية من المارة ... لا أحد أستفسر منه عن مكانى أو يرشدنى على طريق العودة ... أنا فى حالة ضياع ... كيف لى أن أعرف طريق عودتى؟

أطير ثانية لعلى أهتدى وأعرف موقعى ... الطيران لم يعد صعباً، فلى خبرة سابقة ... من علو سيزداد مجال رؤيتى. رغم توهانى فإنى سعيد ، فلدى قدرات جديدة لم أكن أمتلكها من قبل ولا يمتلكها إنسان غيرى ؛ القفز لارتفاعات كبيرة ومسافات بعيدة والطيران الذاتى. تذكرت عندما كنت أذهب لقريتنا لتمضية العطلة الصيفية ، وتصادفنى قناة ماء صغيرة فى طريقى ، لا تتعدى المتر عرضاً ، ويتوجب على عبورها قفزاً ، كنت أقفزها ، لكنى فى كل مرة أقفز فوقها ينتابنى شعور بالرهبة خوفاً من السقوط فى الماء فتبتل ملابسى وتتوحل. أما الآن فإنى أقفز لمسافات كبيرة دون وجل أو خوف ... أستطيع أن أقفز من أحد جوانب ترعة كبيرة إلى جانبها الآخر ، دون ما حاجة للمخاطرة بالعبور سيراً فى حركة بهلوانية على جذع نخلة تصل ما بين شطيها. أيضاً فإنه باستطاعتى الطيران

لسافات بعيدة... هل أصبحت سوبرمان حقا ؟ !! هل أنا ذلك المنقذ الذى يظهر فى مسلسلات التليفزيون ؟ كلا ، فالرجل الطائر أو المرأة الطائرة التى تظهر فى المسلسلات التليفزيونية أو الأفلام السينمائية ليست حقيقة بل هى من خدع المخرج والمصور اللذان أتقنا صنعتهما ، وليس من فعل الممثل أو الممثلة. أما أنا فأختلف عن هؤلاء ... أنا حقيقة أطير ... أشعر بسعادة لا حدود لها.

المهم الآن أن أعود ... أعود إلى الحى الذى أعيش فيه ... أعود إلى الشارع الذى يقع فيه منزلنا ... أعود إلى منزلى ، تلك هى المشكلة. إنتقلت من حى إلى آخر ، إنه ليس حينا أيضا. واصلت الطيران والتوهان ... لقد تركت المدينة ... أطير فوق مناطق خضراء... إننى فى الريف ، لكنه ريف يختلف عن ريفنا ، إنه يشبه الريف الإنجليزى الذى عشت فيه فترة من حياتى ... أرى وسط الخضرة منزلا صغيرا أسقفه ليست مسطحة كأسقف منازلنا ... هى من نوع الجمالون الذى لا يسمح بماء المطر بالمكوث عليه ، غيرت اتجاهى وعدت ثانية إلى المناطق السكنية.

تعبت من البحث ... قدرتى على الطيران قد ضعفت ... أرغب فى الراحة. أهبط إلى الأرض للمرة الثانية. هبطت فى منطقة لم يسبق لى التجول فيها ... أسير على غير هدى ... المنطقة خالية من الناس ... يا للهول !! إننى حافى القدمين ... أه ، لم يسبق لى أن خرجت خارج منزلى هكذا ، حافى القدمين !! حتى فى طفولتى ... يا للمصيبة ... أين ملابسى؟ أرتدى الملابس الداخلية فقط !! أسير فى طريق عام هكذا ! كيف أتصرف ؟ وبما أتعلل لو صادفنى أحد معارفى؟ إننى فى موقف لا أحسد عليه ... لقد تغير الوضع ... سعادتى انقلبت إلى تعاسة لا حدود لها ... أسير خجلا بجانب الحائط ... أسير من طريق إلى آخر حتى كلت قدماى ... أشعر برغبة فى النوم ... أغمض عيناى وأستغرق فى سبات عميق... يمضى بى الزمن ، لا أدرى كم طال. إنى أتمدد ... أشد جسمى ... أثنى ذراعاى وأشدهما ... أمدد أرجلى ... أتمطع كما تفعل القطة عند صحوتها بعد غفوتها ... آخذ نفسا عميقا ... ما هذا الذى أراه !! لست فى قارعة الطريق !! لم أقفز قفزات عالية!! لم أعلو كما تعلو الطيور !! لم أمشى حافى القدمين بملابسى

الداخلية فقط !! لازلت على سريرى ولم أبارح حجرتى المغلقة ... ربما روحى هى التى قفزت من جسدى !! وهى التى طارت وتجولت وسافرت ، ثم عادت إلى جسدى المستلقى على الفراش قبيل استيقاظى.

آه لو تحقق الجزء الأول من حلمى ... بديع أن أطير ... بديع أن أتميز على أقرانى ، لقد حاول عباس بن فرناس أن يطير متيقظا فانكسرت رقبته ومات ، أما أنا فحاولت الطيران فى منامى فنجحت.

obeikan.com

obeikan.com

عاش الملك يحيا الملك

obeikan.com

عاش الملك يحيا الملك

سرحان لم يكن إسمه ... سرحان كان حاله وهو يسير فى شوارع الإسكندرية فى العاشرة مساءً ... سرحانه لم يكن ناتجاً عن تفكير فى شىء ، بل كان تفكيره فى لا شىء محدد ، كان فى حالة من الذهول وشرود الذهن ... فى حالة من اللاوجود واللاشعور ... يسير ببطء فى اتجاه أقرب محطة للترام الذى يوصله إلى قرب سكنه... ينظر طريقه ولكنه لا يبصر مما حوله إلا بقدر خطوات قليلة ، دون أن يعير ما حوله من سيارات ومشاه أدنى قدر من الاهتمام... عقله مشغول بكثير من الأحداث الحياتية ؛ العائلية والمالية وما جد فى ذلك اليوم ... أفكاره مشتتة ... تزاحمت الأحداث وتضاربت وتصادمت فكانت محصلتها زخمة فى الباطن وخواء فى الظاهر ، مع تعب وإحساس بأعراض النوم بعد إرهاق يوم طويل.

إستيقظ حلمى فى الثالثة صباحاً والساعة الآن تقترب من العاشرة مساءً ، فقد مرت عليه تسعة عشر ساعة دون أن يغمض له جفن. هو الآن على مقربة من محطة الترام ... اتجه إليها ... يمشى الهوينا ... تفكيره مشتت وتركيز ضعيف. سمع صوت صفير محصل الترام الآمرة لسائق الترام باستئناف القيادة ... رأى الترام يتحرك ... أمسك بمقبض عربة الترام الوسطى ، فقد كان الترام مكوناً من ثلاثة عربات ... إنزلقت قدمه من السلم وهو يقفز ليصعد إلى الترام ... زادت سرعة الترام ، ولم تكن للترام أبواب تغلق عند تحركه كما هو الحال الآن. إزداد تمسك حلمى بمقبض باب عربة الترام محاولاً رفع جسمه لتصل أقدامه لسلم الترام ... مرت ثوانى قليلة عصيبة كأنها ساعات ... حل التفكير العميق محل الشرود والسرحان ... مرت أحداث اليوم سريعاً أمام خاطره ... هل حلت النهاية؟ لكل المخلوقات بداية ونهاية ... هل هو الأجل المحتوم قد حان موعده تحت عجلات هذا الترام؟ ... هل وصل من يحمل إسمه صباح اليوم ليرحل من أنجبه مساء نفس اليوم؟ عموماً فالإبن إستمرار لحياة الأب ، يقولون من خلف ما مات ، فى هذا إطمئنان وإحساس

بالراحة وقبول بالقدر ، وخاصة أنه لم يعمل شراً فى حياته . قال فى نفسه أنى لم أوذى إنساناً وما عذبت حيواناً ، ولا لوثت ماءاً . أعمل الخير ولا أنتظر من ورائه مقابل ، حتى كلمة الشكر لا أنتظرها . ومادام عملى الدنيوى حسناً فأملى كبير فى حياة أخروية أفضل . وقد أكون أخطأت قليلاً فى الماضى ، لكن أملى فى عفو ربى كبير.

فى فجر ذلك اليوم ، كانت بطن زوجة حلمى قد وصلت فى تكورها إلى منتهاه ، بعد مرور تسعة أشهر بالتمام والكمال من بدء الحمل ، لاقت أثناءها من متاعب الحمل ما تلاقيه السيدات الحوامل... حل موعد انتهاء تعبها وتفريغ حمولتها بعد أن قاربت الرحلة من نهايتها. بعد تسعة أشهر من آلام الحمل بدأت آلام الوضع فى الثالثة صباحاً ... إشتدت الآلام وتقاربت فترات الانقباضات فى الخامسة صباحاً ... إتصلت تليفونياً بطبيبها الذى يباشر حملها ... نزلت مع زوجها بعد أن طلب تاكسى ... ذهبت مع زوجها إلى مستشفى الولادة. بعد ساعة من وصولها حضر الطبيب المختص. فى السابعة صباحاً وصل الضيف الجديد ... ترك عالمه الخاص فى بطن أمه ، بعد أن عاش فيه تسعة أشهر ، إلى دنياه

الفانية. ما أن تنفس الضيف الجديد الهواء الجوى لأول مرة حتى صرخ باكيا ، فقد كان مستريحا فى سكنه الأول حيث كان ينعم بالهدوء والراحة والغذاء المهضوم الوفير . وأمه تشكو من ثقل جسمه وتطفله عليها واستهلاكه لغذائها. والآن وقد خرج من عالم الراحة واللا مسئولية إلى عالم الشقاء والجهاد والتعب والمسئولية فإن كل متطلباته تحتاج منه إلى عمل وجهد.

نسيت الأم متاعبها السابقة ... نسيت شكواها المستمرة إلى طبيبها ... نسيت آلام الحمل وآلام الوضع ... تلاشى كل ذلك مع سماعها لصراخ مولودها ، وحل محلها فرحة عارمة وشعور بالسعادة لا تستطيع له وصفا. أما حلمى الذى كان يسير قلقا خارج حجرة الولادة ، فقد كان يتحرك ، فى طرقة صغيرة ، ذهابا وإيابا ، لا يهدأ له بال ولا يستقر على وضع. بالطرقة مقاعد ولكنه لا يستطيع الجلوس ... وإذا جلس فلثوان معدودات ثم يعود إلى الحركة ... تمر عليه الدقائق كأنها ساعات ، وكلما مر الزمن إزدادت سرعة حركته وإزداد قلقه ... قلق على زوجته وقلق على حملها التى تعبت فيه كثيرا. أخيرا إنفتح باب حجرة الولادة وخرج الطبيب مبشرا

بوصول المولود ... زال القلق وانقلب إلى راحة مصحوبة ببشر وسرور... لم يطمئنه الطبيب على حالة الوالدة ، إندفع مسرعا إلى غرفة الولادة ونظر سريعا إلى زوجته وإبنه وكان لا زال عاريا ، هنأ الأم بالسلامة ومباركا بالمولود. تنبهت المرضة إلى وجود الزوج فطلبت منه بحزم مغادرة الحجرة فورا.

قضى حلمى بقية يومه بجوار إبنه وزوجته ، فى حديث قليل وتفكير كثير. حديث كله أمل وفرح وسرور ، وتفكير فى مستقبل القادم الميمون ، تخيلاه فى طفولته وتصوراه فى شبابه وما يتوقعونه له فى مستقبله ... هو الأمل وهو المستقبل. مرت الساعات ... يوم طويل من الثالثة صباحا حتى قبيل العاشرة مساء ، حين خرج حلمى من المستشفى متجها إلى المنزل الذى غادره منذ الصباح الباكر ، وقد أنهكه طول اليوم وحدث اليوم ، فالمولود الأول حدث كبير وهام للأسرة ... سار فى اتجاه أقرب محطة للترام ... لا هو بالنائم ولا هو بالمستيقظ ... هو النائم الصاحى ، أو المستيقظ النائم.

تعلق بمقبض عربة الترام ، تداعت له الأحداث سريعا ... قال فى نفسه " مات الملك يحيا الملك " ... فجأة أحس حلمى بيد قوية

تمتد إليه وترفعه رفعا إلى سلم الترام٠ سار إلى داخل عربة الترام ٠٠٠ جلس على أقرب مقعد . وقد زالت عنه حالة الشرود التى لازمته طوال طريق سيره من المستشفى حتى سلم الترام٠ تنبه تفكيره قويا وقال فى نفسه " عاش الملك يحيا الملك " فقد نجا من موت ظنه محققا ٠٠٠ حمد الله كثيرا أن حافظ عليه وتركه حتى يرعى نشأة مولوده٠

obeikan.com

ذو المدثرين

obeikan.com

ذو المدخنتين

إنه سقيم مسلول السعلاوى المكنى بذى المدخنتين. ولد فى النصف الثانى من القرن العشرين وانتقل إلى رحمة الله فى بداية القرن الحادى والعشرين بعد الاحتفالات ببدء الألفية الثالثة الميلادية ، عن عمر يناهز الأربعين عاما.

ولد سقيم فى فجر يوم شتوى قارص البرودة ، وكان فى انتظاره أب فى الخامسة والثلاثين من العمر وخمسة إخوة بنات سبقته إلى عالم الأحياء. أعلن فى المنزل أن المولود الجديد ذكر جميل الوجه موفور الصحة سمين البنية. خاف الوالدين عليه من عيون الحساد ، فالولد بعد خمسة بنات يعتبر عملة نادرة ، فقالا نسميه سقيما ، رغم جودة صحته ... ذرا للرماد وإبعادا لعيون الأشرار ، وكان الناس فى هذا الزمان إذا خيف على المولود من عيون الحساد إختاروا له اسما يكرهونه ، فبعضهم يسميه شحاته وآخر يسميه الشحات وثالث

يسميه كسلان ورابع يطلق عليه سرحان ، وقد يسمونه دبشة أو زلطة. وزيادة فى إجراءات الوقاية ضد الحسد ، ألبس سقيم ملابس إخوته البنات القديمة حتى يكون مظهره أمام الزوار بنتاً تكمل عدد الإخوة البنات إلى ستة إخوة.

كان والدا سقيماً ميسورين ، وكان لديهما وفرة من المال والعتاد. فرح الوالدان بالقادم الجديد فرحاً شديداً ، وفضلوه على أخواته تفضيلاً كبيراً. أصبح الجميع فى خدمة سقيم ... طلباته مجابة بمجرد الإيماء ... رغباته منفذة بمجرد التلميح ... الكل يتطلع إلى إرضائه ... الجميع يخشى غضبه ... إذا مرض أعلنت بالمنزل حالة الطوارئ ... وإذا صح عم الفرح والحبور ، فهو الطفل المدلل فى العائلة.

كان مسلول والد سقيم مدخناً شرهاً. يضع سجائره فى علبة مذهبة أنيقة ، يخرج منها السيجارة تلو السيجارة. يضع السيجارة بين شفتيه على جانب فمه الأيمن ليشعلها ، وتستمر السيجارة فى موضعها حتى يقترب الجزء المشتعل من شفتاه ، عندها فقط يتخلص منها. وكثيراً ما يشعل سيجارة جديدة من السيجارة السابقة قبل أن

يطفئها ويلقى بها فى طقطوقة السجائر ، فالسيجارة تكاد لا تفارقه ... يتكلم والسيجارة فى فمه ... يحركها صعوداً ونزولاً ... يأخذ منها نفثاً قوياً ، ثم بعد مرور لحظات يخرج الدخان مرة من جانب فمه الأيسر ومرة من طاقتى أنفه.

كان سقيم يحب أبيه حباً جماً ، ويعجب به أيما إعجاب ، وأكثر ما يعجبه فيه ويشد انتباهه ، منظر الدخان وهو يتصاعد من فتحتى أنفه ، دفعه تلو أخرى. يجلس سقيم بجانب أبيه معظم الوقت ، مركزاً نظره على حركة سيجارة أبيه ، وعلى الدخان المنطلق من فمه وأنفه بين الحين والحين ، وعلى سحابة الدخان المتكونة فى الحجرة ، وكثيراً ما حاول الطفل الإمساك بالدخان ، وأخوته من حوله يضحكون ويهللون ، وأبواه من ذلك مبهوران مسروران والطفل بذلك فرح سعيد .... معجب بأبيه ... كيف يتكلم والسيجارة ثابتة فى فمه لا تسقط !! انطبعت تلك الصور فى مخيلة الطفل ، وتمنى عندما يكبر أن يكون مثل أبيه ... يفعل بالسجائر كما يفعل الأب القدوة.

إعتقد سقيم بمرور الزمن أن الرجولة لا تكتمل إلا بالتدخين ، فأمه وأخوته لا يدخن . والأطفال والأولاد الأكبر سناً ممنوعون عن التدخين، لكن الرجال فقط ، في تصوره هم المدخنون ، فالاستنتاج الواضح للطفل البريء أن التدخين صفة ملازمة للكبار من الذكور.

كبر سقيم وذهب إلى المدرسة ، وأنهى بجد ونجاح وتفوق المرحلتين الإبتدائية والإعدادية ، فقد كان ولدا مجدا نابها محبوبا لدى مدرسيه. دخل بعد ذلك المرحلة الثانوية ، ولم يكن قد جاوز الرابعة عشر من عمره. ارتبطت المدرسة الثانوية في ذهن سقيم بسن الرجولة وخاصة أنهم في المنزل بدءوا في معاملته على أنه الرجل الثاني بالمنزل ... الآمر الناهي على إخوته البنات ، وسن الرجولة ارتبطت في مخيلته بسن التدخين ... الرجولة لا تكتمل إلا بالتدخين !! كيف يبدأ ذلك؟ والده لن يسمح له بذلك. بعد تفكير وجد أن أسهل وسيلة لذلك أن يسرق سيجارة أو إثنين يوميا من علبة دخان أبيه التي كان يتركها دائما في حجرة الجلوس ... لن يلحظ أبيه ذلك فهو يدخن يوميا حوالي ثلاث علب ... إن إختفاء سيجارة أو سيجارتين من ستين سيجارة لن تكون ملحوظة. كان يتقاسم

سيجارته فى الشارع مع أقرانه من الصبية وهم يلعبون بعيدا عن المنزل، وأثناء تدخينه كان يقلد أباه فى نفث الدخان من طاقتى أنفه مباهيا ومفاخرا ، صاحب ذلك ضعف فى الشهية وقلة فيما يتناوله من طعام مما أدى إلى هزال فى جسمه وخاصة أنه لا زال فى فترة النمو.

أنهى سقيم تعليمه الثانوى بنجاح ، ولكن دون تفوق كما تعودنا عنه سابقا ، فبعد أن كان من الأوائل تراجع كثيرا ، وكان بإمكانه آنذاك إنهاء تدخينه بسهولة ، فلم يكن التدخين بالنسبة له فى ذلك الوقت مزاجا مستحكما ، إنما كان قدوة عن أبيه وتقليدا له ، واعتقادا باطلا بأن التدخين والرجولة متلازمان ، ولهذا فإنه بدخوله للجامعة وإحساسه بالحرية الجامعية إشترى ولأول مرة علبة سجائر ، أتبعها بعلب أخرى. علم أبواه بالأمر ، ولم ينكرا عليه ذلك. فالأوضاع فى المنزل معكوسة ... الإبن المدلل هو الآمر المطاع ... أوامر الصغير تسرى على الكبار !! ، وأصبح من المألوف رؤية سقيم جالسا أمام أبيه مسلول ، واضعا ساق على ساق ... الإبن وأباه يتباريان فى التدخين والدخان المتصاعد منهما يملأ جو المنزل ... الإبن يدخن

سيجارة ... والأب انتقل إلى تدخين الغليون ، فقد إنهارت صحة الأب من التدخين وقيل له إن الغليون أخف ضررا من السجائر.

تدهورت صحة سقيم ، كما سبق وتدهورت صحة أبيه ، من كثرة التدخين ، فالسعال لا يفارقه ، وتركيزه فى الدروس أصبح ضعيفا ، وقدرته على التحصيل قلت بدرجة واضحة ، فأكثر من التدخين ظنا منه أن ذلك يساعده على التركيز ... تدهورت صحته أكثر وأكثر ، وانتهت السنة الجامعية الأولى بالنتيجة المتوقعة وكانت الرسوب فى معظم المواد. مر عامان آخران من سوء التحصيل والرسوب المتكرر ففصل من الجامعه.

نصحه الأطباء والأصدقاء المخلصون وكذلك أمه وأخواته بالإقلاع عن التدخين ، ففساد الصحة سببه التدخين وإضطراب النفس راجع إليه والرسوب المتكرر يعزى إليه. أما الأب فكان ينظر إلى إبنه الوحيد فى أسى وحسرة ، يراه يهزل ويضعف ولا يستطيع له نصحا، فكيف ينصحه بترك التدخين ولا يستطيع نصح نفسه والإقلاع عن التدخين، فالإثنان فى قارب واحد ... ركبه الأب أولا ثم تعلق به الإبن بعد ذلك.

إقتنع سقيم بأهمية ترك التدخين وبأنه سبب ما وصل إليه حاله، إلا أن عزيمته الواهية وإرادته الضعيفة لم تساعداه ، فاستمر في التدخين ... إزداد التدهور في الصحة ... لازم الفراش بضع سنوات. يدخن وهو جالس ... يدخن وهو مستلقى على فراشه... ينفث سحابة الدخان في هواء الحجرة ... يراقبها بأسى وحسرة ولسان حاله يقول :

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

ونسى أنه جنى على غيره كثيرا ، وخاصة أهل بيته فدخان سجائره يستنشقه الآخرون ... يضرهم كما يضره ... ويسمم أجسامهم كما يسمم جسمه.

وفي فجر يوم شتوي بارد لفظ سقيم أنفاسه الأخيرة ، وما أن سمع أبوه الخبر وهو راقد في حجرة أخرى حتى دمعت عيناه وبعد لحظات لحق الأب بإبنه ، تاركين الأخوات الخمسة وأمهم في حالة حزن شديد.

ومن الحب ما قتل

obeikan.com

ومن الحب ما قتل

سعيد شاب غير سعيد ... أحب ولم تبادله من أحبها حباً بحب ... حب من جانب واحد ... كانت تصده دائماً كلما قابلها فى الطريق وبث إليها بكلمات رقيقة تعبر عن مشاعره نحوها. لم يستطع تحمل حبها وصدها ، فكنت تراه تائه الذهن شارد العقل معظم الوقت ، منعزلاً عن الناس منطوياً على نفسه ، زاهداً فى الطعام، كارها للخروج ، كثير التفكير ، حتى القراءة التى كان شغوفاً بها أصبح غير قادر على الاستمرار فيها ... يمسك الكتاب ... يفتح أحد صفحاته ... يقرأ الجملة دون أن يستوعب لها معنى ، فعقله مشغول عما فى الكتاب من معلومات وآراء وأفكار ... ينتقل من جملة إلى أخرى ... يستمر على ذلك فترة ، ثم يلقى بالكتاب جانباً.

ينتقل من الكتب إلى الصحف ... يمسكها بعض الوقت ، يقلب صفحاتها ... المقالات لا تعنيه والأخبار لا تهمه ... يلقى بها جانباً دون أن يعى منها شيئاً.

فى هذه الفترة بالذات حل موعد أداء سعيد للخدمة العسكرية ، أعلن ذلك فى الصحف وغيرها من وسائل الإعلام. فرح أهله بذلك ، آملين أن تخرجه خدمة الجيش من عزلته وتبعده عن حالة الإنطواء التى ألمت به وتنهى بذلك حالة الاكتئاب والشرود الذهنى التى تمكنت منه. ففى الجيش هو مجبر على الاختلاط ، حين ينتظم مع أقرانه فى الطوابير وفى مختلف التدريبات وخلال فترات الطعام والنوم.

إنتظم سعيد فى الخدمة العسكرية ، مطيعاً لرؤسائه ، مؤدياً ما يطلب منه ، لكنه عندما يخلو بنفسه وخاصة أثناء فترات الراحة والنوم ، يعاوده التفكير فيمن أحبها وصدته ، وتعلق بها قلبه ولم تتجاوب معه ، فهو بها شغوف وهى له غير مكترثة ، بل قل غير شاعرة بوجوده.

فى أحد فترات الراحة التى تمنح للمجندين ليخرجوا من معسكراتهم ويزورا أهلهم ، خرج سعيد مع غيره من المجندين ... الكل فرح مسرور بعطلة يومين بعيداً عن طوابير وتدريبات المعسكر ، ورغبته قاصرة على رؤية من عشقها قلبه. لم يذهب سعيد إلى منزله أولاً ، بل ذهب إلى منزل بسمة ؛ الفتاة التى أحبها ولم تعره إهتماماً... وقف أمام منزلها منتظراً خروجها ... خرجت دون أن تراه ... سار خلفها عن بعد ... انتظرت عند موقف الحافلات القريب من منزلها ... إستقلت حافلة. إكتفى سعيد بالنظر إليها دون أن يقترب منها ، فهو يعلم رد فعلها إن حاول مغازلتها. تحركت الحافلة فى اتجاه وسار هو فى اتجاه آخر نحو منزله. قابله أهله بترحاب واشتياق وقابلهم ببرود وجفاء ... دخل إلى حجرته ، وعاد إلى عزلته وزهده فى الطعام.

فى يوم راحته الثانى ، وهو اليوم الأخير المسموح به ، خرج فى الصباح متوجهاً إلى منزل حبيبته التى لم تحبه ، وكرر ما فعل فى يوم راحته الأولى ، إلا أنه زاد عما فعله فى يومه السابق ، بأن ركب معها الحافلة دون أن تلحظه ، وعندما نزلت من الحافلة نزل هو أيضاً ...

سار خلفها ... تبعها عن بعد متنقلة من شارع إلى آخر حتى رآها تدخل مقر إحدى الشركات. لم ينتظر وعاد ثانية إلى منزله ،ودخل إلى حجرته وأغلقها عليه ، لا يخرج منها إلا لتناول لقيمات.

فى اليوم الثالث ، وهو يوم عودته إلى وحدته بالجيش ، استيقظ سعيد مبكراً ولبس ملابسه العسكرية ، وترك المنزل متجهاً نحو المعسكر... قدماه لم تطاوعه فى التوجه إلى وحدته ... وقف برهة متردداً ، ثم اتخذ فى نفسه قراراً ... غير إتجاه سيره من اتجاه المعسكر إلى اتجاه محبوبته بسمة ... موعد خروجها قد قرب ... أسرع الخطى ... وصل إلى المنزل وهى على وشك مغادرته ... متع نفسه بالنظر إليها وبمتابعتها فى الطريق وفى الحافلة وحتى مقر عملها ، لكنه فى هذه المرة انتظر أمام مقر الشركة ، ليراها ويتابعها عند انصرافها ، لكنها خرجت بعد أقل من ساعة ، شاهدها خارجة من الشركة ومعها شاب، وكانا يحملان حقيبتان منتفختان ... سار خلفهما عن بعد... ذهبا إلى منزل فدخلا فيه ... إنتظر ... مضت فترة ليست طويلة وخرجا ، ثم سارا سوياً ودخلا منزلاً آخر ، وهكذا... تبعهما من منزل إلى آخر. لاحظ سعيد أن الحقيبتان

اللاتى يحملانها تقل انتفاخاً وتقل وزناً من منزل إلى آخر ، فاستنتج من ذلك أن فتاته وزميلها يعملان كمندوبى مبيعات للشركة التى يعملان بها ، فلم يسىء الظن بهما والأمل لديه لازال موجوداً.

حل صباح اليوم الرابع وقد نسى سعيد أو تناسى ضرورة عودته لوحدته العسكرية ، وكرر سعيد ما فعله سابقاً ، مقتفياً حركة محبوبته ، فوجد أن ما حدث فى اليوم السابق قد تكرر ، إلا أن المنازل التى زاراها قد تغيرت. وهكذا فى اليوم الخامس ، وبذلك تأكد شعوره وإحساسه بأن محبوبته وزميلها لا يزيدا عن كونهما زميلى عمل.

فى اليوم السادس ، استيقظ صباحاً كالمعتاد ، وبعد تناول إفطار خفيف ، خرج من منزله متجها نحو منزل محبوبته ... حلت ساعة خروجها للعمل ، لكنها لم تظهر ... تحرك فى الشارع جيئة وذهاباً وعينه على منزلها ... مضت ساعة ولم تخرج ... تذكر أن اليوم يوم جمعه ... يوم راحة فى كثير من الشركات ... استمر فى موقعه... مضت ساعة أخرى ولم تخرج ... وبعد بضعة دقائق رآها خارجة فى أجمل زينة وأبهى حلة بخلاف العادة فى الأيام السابقة

التى راقبها فيها ... إزدادت سرعة نبضات قلبه ... هم بمقابلتها والحديث معها ، لكنه خشى عواقب ذلك فتراجع ... سار خلفها عن بعد حتى لا تلحظ وجوده. عند موقف الحافلات القريب من سكنها ، ركبت بسعة حافلة غير التى اعتادت ركوبها فى طريقها للعمل ... صعد إلى الحافلة من السلم الآخر ... عينيه عليها لا تفارقها ... نزلت فنزل ... سارت فتبعها ... تمشت على شاطئ النيل فتمشى بعيداً عنها ... دخلت إحدى الكازيونوهات المطلة على النيل فدخلها ... توجهت إلى إحدى المقاعد القريبة من الشاطئ وجلست ... جلس هو على مقعد حول طاولة أخرى بعيدة. مضت بضع دقائق وأتى شاب وسيم توجه نحوها ... قابلته بالترحاب... ظهر على وجهها ملامح البهجة والسرور. إتضح أن هذا الشاب هو نفس الشاب الذى يعمل معها ويلازمها فى جولاتها اليومية ، إلا أنه فى هذا اليوم لم يكن فى مظهره وملبسه وسلوكياته كما عهده سعيد عنه فى الأيام الثلاثة السابقة التى راقبهما فيها ... كانا زميلى عمل لا يكترثان بمظهر أو بملبس ، كان يحمل كل منهما حقيبة كبيرة وثقيلة ، هو يحملها على كتفه وهى تحملها بيدها ، أما اليوم فهو

د. جميلة العروسي

لا يحمل شيئاً وهى تحمل حقيبة يد نسائية أنيقة ... كانا فى الأيام السابقة زميلين أما اليوم فهما حبيبان ، يريدان أن ينفثا عن نفسيهما عناء وإرهاق العمل الأسبوعى ... فى جلسة شاعرية على ضفة النيل، يتبادلان بين الحين والحين نظرات الحب ، كما يتبادلان كلمات رقيقة فى خلفية من صوت خرير الماء الجارى ... خاب ظنه وضاع أمله ... هى لغيره ولن تكون له ... دب اليأس فى نفسه ، فقام من مكانه بعد أن رشف رشفة من العصير الذى طلبه وترك الباقى، وألقى نظرة أخيرة إليها ... تذكر أنه مجند وقد تغيب عن موعد عودته إلى وحدته أربعة أيام.

عاد سعيد إلى منزله مكتئبا حزينا ، وقد تملك منه اليأس والقنوط، والبؤس باديا عليه ... لم يأكل إلا أقل القليل ... نام ولم ينم ... رقد على سريره وعينيه لا تغمضان ... صورة بسمة مع حبيبها بالكازينو لا تفارق مخيلته ... يتقلب على فراشه وهو فى حالته التعيسة. استمر على ذلك حتى سمع تكبيرة أذان الفجر ، فقام وتوضأ وصلى ، لعله يفيق مما هو فيه ، ثم عاود الاستلقاء دون

نعاس حتى أشرقت شمس الصباح ... لبس زى الجندية ... توجه إلى وحدته العسكرية.

إستدعى المجند سعيد إلى قيادة الوحدة العسكرية لاستجوابه عن أسباب تغيبه بعد إنتهاء فترة الراحة الممنوحة له ... تلجلج وتلعثم وتعثر فى إجابته ... دمعت عيناه ... لم يستطع لغيابه تعليلا أو يجد له عذرا مقبولا .. قدم سعيد لمحاكمة داخل وحدته ، فتقرر حبسه بزنزانه حبسا انفراديا لمدة تعادل مدة غيابه. خرج سعيد من المحاكمة كما دخلها ... حالته النفسية لم تتأثر بالحكم ، فهو فى سجن داخل نفسه ، وهو فى حالته يسعى للعزلة عن الغير ، لا يفكر فى الحبس كعقوبة ، تفكيره فى الحب الميؤوس منه ... الدنيا قد تخلت عنه نهائيا ... آماله فى الحياة قد انغلقت ... سدت الطرق وتقطعت الخيوط واسودت الدنيا فى وجهه.

خرج سعيد بعد التحقيق يصحبة حارسان متوجهين به إلى محبسه. وفى الطريق طلب من حارساه ، وهما زميلان مجندان ، أن يذهب إلى دورة المياه لقضاء ضرورة ألمت به. تركاه لحظات وقد كانت دورة المياه ملاصقة لورشة صيانة المعدات الميكانيكية للوحدة ...

غافلهما ودخل ورشة الصيانة ... وجد جركا به بعض البنزين ... صب البنزين على ملابسه ، وفى سرعة وبعود ثقاب أشعل النار فى ملابسه ... شعر حارساه والعاملون بالورشة بذلك ... أسرعوا إليه وتمكنوا من إطفاء النيران المشتعلة بعد أن أصابت النيران وجهه وجسده ... نقل سريعا إلى المستشفى العام التابع له الوحدة حيث لفظ أنفاسه الأخيرة.

مات سعيد منتحرا ، لا بسبب الحكم كما ظن محاكموه ، ولكن بسبب الحب ... ومن الحب ما قتل ... أصبح حارساه متهمين بالإهمال وأصبح قاضيه عرضة للإتهام بالقسوة ... هل تثبت الوقائع كما حدثت؟ أم يجرى عليها تعديل يخرج به الأحياء سالمين؟ هم لا يعلمون بأن انتحار المجند سعيد لم يكن نتيجة لقرار الحبس وأنه كان نتيجة لحب غير متبادل. مزقت أوراق التحقيق ، فهو تحقيق محلى بسيط وليست له إجراءات المحاكمات العسكرية من إعلان واتهام ودفاع ، واعتبر غياب سعيد بعذر مقبول واعتبر موته قضاء وقدرا ، فقد لوثت ملابسه أثناء إزالة بعض الشحوم منها ببعض المواد

المشتعلة، ولا مستها شرارة نار أثناء عملية لحام فحدث ما حدث،
وهكذا كانت حياة سعيد قصيرة ونهايتها بائسة حزينة.

لم يمض أسبوعان على تلك الخاتمة التى أنهى سعيد بها حياته حتى قبض البوليس على بسمة وزميلها أثناء مرورهما على أحد المساكن لعرض بضائع الشركة التى يعملون بها. أقتيدا إلى نقطة الشرطة ... فتشت حقيبتيهما ... فوجد بهما بجانب منتجات الشركة من أدوات التجميل المختلفة ، حبوب برشام. أرسلت الحبوب للتحليل وتبين أنها لأحد المخدرات المصنعة والممنوع تداولها... حولا للتحقيق ثم للقضاء بتهمة الإتجار فى المخدرات.

لو أن سعيدا صبر ولم ينتحر ، لعلم أن محبوبته لا تستحق حبه، فهى ليست الطاهرة الملاك الذى تصوره سابقا ، بل هى تاجرة مخدرات تنشر المرض والموت بين الشباب ، هل كان يستمر على حبها ؟ هل كان سينتحر بسببها ؟ هل هى تستحق ما فعل ؟!!

obeikan.com

والميت كلب

obeikan.com

والبت كلب

الناس فى دنيانا طبقات ، طبقة الفقـراء المدقعـون ، سـاكنى الأرصفة وجوانب الطرقات ، الذين يعيشون على ما يصلهم مـن فتـات الغير وصدقات المحسنين ، وطبقة الأغنياء المترفون ، سـاكنى المنـازل الفاخرة والقصور ، والذين يصلهم ، دون عمل أو جهد ، من المـال مـا يزيد كثيراً عن قدراتهم على الإنفاق ، والذين يوصفون بأنـهم الأغنيـاء بالوراثة أو بأنهم المولودون وفى أفواههم ملاعق من ذهب. بين هـاتين الطبقتين من الناس نجد طبقة العاملين . وهم الأغلبيـة بـين النـاس . وتشـمل الذيـن يعملـون فيكسـبون ويجتـهدون فينـالون ، ولـو أنـهم يختلفون فيما بينهم جهداً ، كما يختلفون فـى قدراتـهم الذهنيـة وفـى مسـتوياتهم العلميـة والثقافيـة ، لهـذا فـهم يتبـاينون فـى أرزاقـهم ، ويلعب الحظ أحياناً أدواراً فى حياتهم. ويعتـبر العـاملون أفضـل مـن أفراد الطبقتين الخاملتين ، الفقراء الذين يعتمدون فـى معيشـتهم علـى

ما يتفضل به الغير عليهم ، والأغنياء بالوراثة الذين تنساب الأموال بين أيديهم دون ما عمل أو جهد ، فالعاملون هم المجاهدون فى الحياة ، أرزاقهم يحصلون عليها بالجهد والعرق.

وكما أن الناس طبقات كذلك بعض الحيوانات كالقطط والكلاب. فمن الكلاب ما تعيش فى الطرقات ، وهى الغالبية ، تأكل من فضلات المنازل الملقاة ضمن قمامات الشوارع. تمزق أكياس القمامة وتبعثر ما بها بحثا عن طعام يصلح لها فتأكله ، وتنثر ما لا يصلح بعيدا عنها. ومن الكلاب أفراد مترفون مدللون يشاركون أناسا مترفين فى منازلهم أو قصورهم ، يلقون منهم عناية ورعاية تفوق ما يلقاه العاملون فى تلك المساكن من الإنس ، وقد جاء فى الأخبار أن 30% من أصحاب الكلاب أكثر اهتماما بوجبات كلابهم من اهتماماتهم حتى بغذاء زوجاتهم أو أزواجهن !! تجهز أكلات خاصة للكلاب المترفة تتفق مع أذواق تلك الكلاب فى مصانع خاصة ، وتغلف أو تعلب فى عبوات جذابة وتعرض فى محلات السوبر ماركت على الأرفف فى عروض جذابة.

وبين كلاب الشوارع الذليلة التى قد يضربها الأطفال بالحجارة أو يضربها جامعوا الكلاب الضارة بالسياط أو بالرصاص ، وبين الكلاب المدللة والتى تعالج عند مرضها عند الأطباء البيطريين والتى يستدعى حلاق خاص لقص شعورها وتصفيفة ، والتى قد يكون لها خدم خصوصيين ، والتى تنال من أصحابهم من صنوف الرعاية ما يعادل ما يناله أبناؤهم . بين هؤلاء وهؤلاء نجد قلة من الكلاب العاملة ، تعمل فى خدمة الإنسان وتنال منهم العناية التى تتناسب مع أعمالهم ، فمنها ما يعمل في الحراسة بالمنازل ... ومنها ما يساعد الراعى فى جمع أغنامه ومواشيه وتسييرها والحفاظ عليها من الحيوانات البرية الضارية ... ومنها ما يشارك فى أعمال الصيد ... ومنها ما يعمل مع الشرطة فى البحث عن مخابئ المخدرات وتجارها وفى معرفة الجناة ... ومنها ما يقود فاقدى البصر أثناء سيرهم فى الطرقات... ومنها ما يساعد جامعى المشروم البرى النامى تحت سطح التربة اعتماداً على حاسة الشم القوية ... ومنها ما يقوم بالترفيه عن الإنسان أثناء مشاركتها فى ألعاب السيرك ، وحديثاً ظهر من الكلاب ما يقوم بالتمثيل وصار منها نجوم سينما وتليفزيون.

حديثنا فى هذه القصة عن كلب متوسط الحجم ، غزيـر الشـعر ، أبيض اللون ، عاش وسط أسرة ميسورة الحال ، مدللا من أهلـها ... لا يأكل اللحوم النيئة عادة ، لكنه يفضلها نصف مطهية ... يتسـلى بالعظام أو بقطعة من البلاستيك الصلب بشكل عظمة فخذ ... يحـب الحلوى وخاصة ما دخلت الشيكولاتة فى تصنيعها ... يستحم بالمـاء والصابون ولا مانع من استخدام الشامبو ، كما يستحم أهل المنزل ... يذهب إلى الكوافير لتقصير شعره وتصفيفه مرتان فـى العـام ؛ مـرة فـى الربيـع وثانيـة فـى الخريـف ... المـنزل كلـه مبـاح لـه ... كـل الحجرات حجراته ... كـل أفـراد الأسـرة أحبـاؤه ... ينـام حيـث يحلو له ... له اسم يعرف به ويعرفه كباقى أفراد الأسـرة ، ولقيمتـه عندهم سمى بيجو pijou وهى كلمة فرنسية تعنى جوهـرة ، فـهو فـى نظر العائلة التى يعيش معها جوهرة ثمينة ... أحبـوه وأحبـهم ... إذا تغيب أحد أفراد الأسرة يحزن ، فإذا اقترب من المنزل عند عودتـه تتنبه أحاسيس بيجو ويشعر بقرب حضوره فيجـرى نحـو بـاب المـنزل ليسبق الجميع فى استقباله ، محركا ذيله بشـدة يمينـا ويسـارا دليـل سروره وتعبيرا عن فرحته بعـودة الغـائب ، فـإذا مـا فتـح البـاب قـام

بالترحيب بالقادم ترحيباً فيه عتاب واشتياق ... يقفز عليه كطفل يستقبل أمه بعد طول غياب.

لم يكن بيجو المدلل منتظماً فى أكله ، كانت له أكلاته الخاصة ، إلا أنه عندما تجلس العائلة على مائدة الطعام ، يحوم حولهم ، يتنقل حول المائدة من فرد إلى آخر ، لا يترك أحدهم حتى يتذوق منه بعض ما لديه من طعام. وإذا زار العائلة بعض الضيوف ، وقدمت إليهم بعض الحلوى ، فإنه يلاحقهم حتى يعطى من الحلوى مثلما يعطى للضيوف.

رغم عدم انتظام بيجو فى مواعيد ونوعيات أكلاته ، فإنه كان ملتزماً بمواعيد التخلص من فضلاته ، فهو فى المنزل نظيف ملتزم ، يعلم تمام العلم بأنه غير مسموح له بقضاء حاجاته بالمنزل ، فله مواعيد محددة للخروج والتنزه ، أما فى حالات الضرورة القصوى فإنه يجرى نحو الباب الخارجى ، وينبح نباحاً مميزاً فيه أنين ، محركاً قدماه الأماميتين على الباب ، فيفهم أهل الدار أنه لا يستطيع الانتظار ، وينبغى إخراجه فى الحال ، حينئذ يتطوع أحدهم ويخرج به للنزهة. وعند خروجه للنزهة ، سواء أكان ذلك فى مواعيد

خروجه المعتادة أو تحت الظروف الاضطرارية ، فإنه كان يربط بسلسلة خاصة ، تتصل من أحد طرفيها بالطوق الجلدى المحيط برقبته ، ويقاد بالطرف الآخر للسلسلة. وأثناء نزهته بالطرق القريبة من المنزل كان بيجو يتخلص من بقايا هضم طعامه ، وكذلك من السوائل الزائدة فى جسمه. لقد كان كلباً ذكراً يتبول فى الطريق على فترات ... كلما وجد عموداً أو جداراً رفع إحدى قدميه الخلفيتين على الساند ثم يتبول عليه ، ويكرر ذلك عدة مرات أثناء سيره ، ولعله بذلك يترك آثاراً يحدد بها خط سيره ويتعرف عليه كلما مر به ، ويعرف بها طريق عودته إلى المنزل. وفى أحد المرات ، وقد كانت نزهته فى طريق الكورنيش ، كان أحد الأشخاص ، واقفاً يرقب متأملاً حركة أمواج البحر وقد رفع إحدى قدميه على حاجز معدنى بالسور المطل على شاطئ البحر ، فما كان من الكلب بيجو إلا أن رفع قدمه الخلفية اليمنى على الساق الأخرى للشخص الواقف ، وفعل فعلته وترك أثراً له بأن بلل رجل بنطلونه. لما أحس هشام الذى كان يقوده فى نزهته ذلك اليوم بما فعله ، شده وجرى به مسرعاً ، خجلاً وخوفاً، قبل أن يدرك الشخص ما فعله الكلب به. ولحسن حظ هشام

أن فعلة بيجو تمت أثناء وصول موجة عالية إلى الشاطئ ، وصل رذاذها طريق الكورنيش فظن الشخص أن البلل ناتج عنها.

مرت السنوات وبيجو يزداد تدللاً والألفة بينه وبين أفراد العائلة أصبحت قوية حتى لتظنه أنه أحد أفراد العائلة ، وخاصة مع الأخوين هيام وهشام ، فكانت تشترى له بعض الألعاب حتى يجرى خلفها ويحاول اقتناصها. كما كان يؤخذ للتنزه فى الحدائق ليلعب بالكرة التى تقذف بعيداً فيجرى لإحضارها ، وهكذا ، وفى طريق العودة لا مانع من شراء بعض الحلوى له.

وقد عرف بائع الفريسكا ؛ أحد أنواع الحلوى المشهورة بشواطئ الإسكندرية ولع هذا الكلب بحلواه ، فكان يمر عصر كل يوم بالشارع الذى يقع به سكن العائلة التى تعتنى ببيجو ، ويقف أمام المنزل منادياً على الفريسكا ويطلق نفيراً مميزاً من بوقه الخاص ، فما أن يسمع الكلب صوت صاحب الفريسكا ونفيره حتى يجرى إلى بلكونة المنزل المطلة على الشارع ، فينزل أحد الأخوين مصطحباً معه بيجو ويشترى له واحداً من تلك الحلوى.

فى يوم من أيام الشتاء جاء صديق للعائلة للزيارة ، فوجد الجو بالمنزل مكفهراً كئيباً ، والعائلة جميعها فى حالة من الحزن الشديد والأولاد يبكون.

تساءل الضيف عن الخطب الجلل الذى هز كيان الأسرة هزاً شديداً ، وتسبب فيما لاحظه عليهم من هم وغم شديدين ، فقيل له إن بيجو قد مات. فقال الزائر ، رحمه الله ، ثم تساءل ، ومن يكون بيجو؟ هل هو من الأقرباء. فقيل له إنه الكلب الذى كان يستقبلك دائماً بحرارة عند حضورك. قال الضيف ، وكيف حدث ذلك ؟ فأجيب بأن بيجو كان فى عجلة ، يريد أن يخرج إلى الطريق ليتبول، ولكننا تأخرنا عليه ، لهذا فإنه عندما فتحنا الباب الخارجى للسكن، لم ينتظر بيجو كالمعتاد حتى نربط السلسلة بطوق عنقه ، بل أطلق لنفسه العنان ، وجرى مسرعاً للخارج ، وقفز على درج المنزل وخرج إلى الشارع مسرعاً ، وعبر الطريق متجهاً إلى أقرب عمود وكان عمود إنارة على الجانب الآخر من الشارع. وقد اعتدنا عند أخذه للنزهة أن نعبر به الطريق ونسير على رصيف الجانب الآخر من المنزل ، لكن هذه المرة ، وكان بيجو دون قيادة توجهه ، وفى عجلة من أمره ، لم

يكمل عبور الطريق ، فقد كان قضاء الله ... صدمته سيارة مسرعة ، وهكذا كانت النهاية ... الكلب مات والعائلة فى ميتم ، لا أراكم الله مكروها فى عزيز لديكم.

obeikan.com

داز والضبغن

obeikan.com

دار والصبحة

أتى من بلاد بعيدة وذهب إلى بلاد أبعد. عاش طفولته وشبابه في جزيرة أسيوية كبيرة وذهب إلى جزيرة أوربية أكبر. ولد في جزيرة سيلان التي تعرف حالياً بجمهورية سيريلانكا ، تقع إلى الجنوب الشرقي من الهند وتشتهر بزراعة وصناعة الشاى ، تعلم فيها حتى أنهى دراسته الجامعية. في مايو 1954 سافر بالباخرة من بلده في جنوب شرق نصف الكرة الأرضية الشمالى إلى بلدة في شمال غرب نصف الكرة الأرضية الشمالى ، ماراً بالبحر الأحمر وقناة السويس والبحر الأبيض المتوسط حتى وصل إلى ميناء ليفربول ، ومنها بالقطار إلى مدينة مانشستر حيث التحق بجامعتها للحصول على درجة الدكتوراه. مانشستر هى إحدى المدن الصناعية الكبيرة بانجلترا ، معظم منازلها آنذاك أشبه بالفيلات المتلاصقة. يتكون كل منها عادة من دورين ، دور أرضي وآخر علوى ، وأسقفها من نوع الجمالون

المصنوع من القراميد المتراكب بعضه فوق بعض ، ويبرز من هذه الأسقف فى أكثر من موضع مداخن قصيرة. التدفئة كانت بالفحم ، فالفحم يستخرج من مناجمه بإنجلترا بوفرة وسعره فى متناول الجميع. وفى هذه المنازل نجد أن كل حجرة من حجراتها مزودة بمدفأة تعمل بالفحم ، مبنية بالطوب الحرارى فى أحد جدر الحجرة. تعلو المدفئة فتحة أنبوبية رأسية تمر خلال الجدار حتى تصل إلى المدخنة أعلى السقف.

القادم إلى مدينة مانشستر لأول مرة يشعر بالكآبة نظرا لاكتساء جدر منازلها الخارجية وكافة مبانيها الأخرى بطبقة من هباب ترسبت بفعل العوامل الجوية والدخان المتصاعد من المصانع والمنازل ، التى غطت على الألوان الأصلية لتلك المبانى معطية المدينة مظهراً حزيناً لاتشاحها بالسواد.

صاحبنا السريلانكى له اسم طويل ، يتكون من أكثر من إثنى عشر حرفاً ، ولطول إسمه وصعوبة نطقه فإنه كان يفضل أن يناديه أصدقاؤه باسم مختصر يسهل على غير السريلانكى نطقه ، فكان ينادى باسم داز ، الذى يمثل الثلاثة أحرف الأولى من اسمه.

تعرف داز فى أيامه الأولى بمانشستر على القسم الذى سيجرى أبحاثه ودراساته به ، وعلى زملائه بالقسم ، وعلى مكتبة الجامعة ،وعلى الحي المجاور للجامعة ، وعلى الطريق الذى يسلكه يوميا للذهاب من السكن إلى الجامعة والعودة منها ، وقد اختار هذا السكن له زميل هندى يسكن فى نفس سكنه. كان معظم طلبة الجامعة الأغراب يستأجرون حجرات مفروشة وسط سكن عائلى ، وهو ما نعرفه بالبنسيون. وقد اختار صاحبنا داز سكنه فى حى رخيص يبعد حوالى ثلاثة كيلومترات عن الجامعة ، كان يمشيها عادة ذهابا وإيابا، وقليلا ما كان يستقل حافلة لا تكلفه سوى بنس ونصف ، أى ما يعادل ستة مليمات بأسعار تلك الأوقات.

كان الجو فى مدينة مانشستر ، خلال التسعة أيام الأولى من وصول داز ، ربيعيا مائلا للبرودة. الشمس تستطع يوميا ، وتختفى بين السحب أياما أخرى ، وكثيرا ما تمطر تلك السحب بغزارة. الأشجار بدأت تستعيد خضرتها ونضارتها ، فبراعم الأفرع فى حالة نشطة بعد فترة سكون طويلة ؛ أوراق خضراء جديدة تفتحت بدلا من الأوراق التى تساقطت خلال أشهر الخريف وبرودة الشتاء. بعض

الأشجار أزهرت قبل أن تورق والبعض أزهر عقب التوريق. ألوان الأزهار تباينت بين الأبيض والأصفر والأحمر والأزرق بدرجاتها المختلفة. النهار أخذ فى الطول ، والشمس تغرب بعد الثامنة مساء.

فى اليوم العاشر من وصول داز إلى مانشستر ، وقد كان الجو يومها جميلا والشمس ساطعة ، توجه داز فى الصباح مرتجلا إلى الجامعة ، وتوجه إلى مكتبتها للقراءة وجمع معلومات عن البحث الذى يزمع القيام به لنيل درجة الدكتوراه ، بعدها أخذ فترة راحة لتناول وجبة الغذاء ، ثم توجه إلى المكان الذى حدد له بالقسم ، يفكر فى البحث ويكتب خطة الدراسة ويحدد متطلباته للعمل ، ليعرض كل ذلك على مشرفه فى الدراسة. فى حوالى الرابعة من مساء ذلك اليوم ، بدأ الجو يتغير فى الخارج ، لكنه لم يشعر بذلك نظرا لوجوده فى حجرة داخلية بمبنى الجامعة المجهز بالتدفئة المركزية ، حيث لا يتأثر الجو بالداخل بالجو الخارجى ، فالحرارة ثابتة ليلا أو نهارا، صيفا أو شتاء.

لاحظ داز أن كثيرا من العاملين بالمبنى يستعدون للإنصراف ، رغم أنهم عادة ، ما يبارحون عند الخامسة مساء ، وأن بعض

الباحثين يستمرون فى العمل بعد ذلك لفترات مسائية متفاوتة تتوقف على طبيعة ما يجرونه من أبحاث. تساءل داز عن أسباب اللهفة على الخروج فنصحوه بسرعة الإنصراف والعودة مباشرة إلى سكنه قبل أن يتغير الجو إلى أسوأ ، ما هى حالة الجو بالخارج ؟ ما نوع التغيير المتوقع حدوثه ؟ هل هو أعصار كالأعاصير التى تحدث عادة فى دول شرق آسيا ؟ أسئلة جالت بخاطره دون أن يجد لها إجابات شافية... الكل فى عجلة من أمره ... لبس بالطو المطر ، وارتدى حذاءه الكاوتشوك الكبير ذو العنق الطويل الذى يشبه لحد كبير تلك التى يلبسها عمال الخرسانة ، فوق حذائه الجلدى العادى ، كما هى العادة فى هذه البلاد خلال فترات الأمطار والبرودة اتقاء للرطوبة الناتجة عن كثرة المياه بالأرض عند تساقط الأمطار وحماية لأحذيتهم الجلدية ، وأخذ معه مظلة المطر التى اشتراها فى اليوم الثانى لوصوله إلى مانشستر.

مر داز على صديقه الهندى الذى يشاركه السكن ، وخرجا مسرعين معا. فوجئا بمجرد خروجهما من المبنى بالجامعة بأن الليل قد حل ، رغم أنه مازال على وقت الغروب ما يزيد عن الثلاث

ساعات. استبعدا من ذهنهما فكرة الإعصار ، وظنا أنها حالة كسوف كلى للشمس ، ولكن سرعان ما خاب ظنهما ، فالجو شبه خانق والرطوبة مرتفعة بالرغم من أن الجو كان مشمسا أثناء فترة الراحة للغذاء ، والمدينة بعيدة عن البحر ، ولا يوجد حولها بحيرات. سارا على الرصيف بالطريق العام فى اتجاه البنسيون. خلال دقائق إزدادت ظلمة الجو وأصبحا لا يريان الطريق ولا المارة ، حتى أكفهما لا يستطيعان رؤيتهما مهما قرباها إلى نظرهما. كانا يسيران على الرصيف ... فجأة سقط داز من الرصيف إلى أرضية الشارع ... أسرع بالصعود ثانية على الرصيف حتى لا تصدمه إحدى السيارات... السيارات والحافلات لا ترى ، إنما تسمع أصواتها... أنيرت مصابيح الشوارع ... ضوءها لا يصل إلى الأرض ، ترى مصباح إضاءة الشارع كضوء نجمة بعيدة ، تراها نقطة مضيئة لكنها لا تنير الطريق ... كشافات السيارات لا تنير من الطريق إلا مسافة قدم. تسير السيارات مثل المشاة فى منتهى البطىء وكذلك الحافلات ... محصل الحافلة يمسك بمشعل ويسير أمام الحافلة ... كل الحافلات متجهة إلى مكان مبيتها ... أشعلت بعض المشاعل فى الطرقات ،

فهى أجدى فى الإنارة من المصابيح الكهربائية المرتفعة ، تحت هذه الظروف .

واصل داز وصديقه الهندى سيرهما على رصيف الشارع الرئيسى، وهما متماسكين بالأيدى ... سمعا أقدام شخص يمر بجوارهما ... ترك الهندى يده من يد داز ليسأل الشخص المار عن موقعهما من الطريق ، هل هما يسيران فى الاتجاه السليم ؟ ومن عادة الإنجليز أن يمشيا بخطى واسعة وسريعة. سار خلفهما داز ... اختفى صوت الصديق الهندى ... أصبح داز وحيدا فى ظلمة المكان ، لا يدرى أين هو ، ولا كيفية وصوله إلى مقر سكنه ، فهو كالضرير فى مكان غريب... هل هو يسير بطول الطريق فى الاتجاه الصحيح ، أم أنه يسير بانحراف ... مرة يجد نفسه على حافة الرصيف يوشك على الوقوع منه ... تارة يجد نفسه قد ارتطم بجدار. أخيرا قرر أن يسير بجوار الحائط ، يده اليمنى ممسكة بمظلة المطر مستخدما إياها كعصى الكفيف يضرب بها باستمرار جدار المبنى الملاصق للرصيف ، ليتأكد أنه لم ينحرف عن الطريق. الطريق يتقاطع مع طرقات أخرى ... كيف يعبر تلك الطرقات ويتقى شر التصادم مع السيارات ؟ كيف

يحافظ على اتجاهه أثناء عبوره للطريق ؟ إنه فى سيره على الرصيف ينحرف أحيانا بعيدا عن جدار المنزل المجاور ويتجه إلى حافة الرصيف ... سكنه فى طريق متعامدة مع الطريق الرئيسى للجامعة... كم من التقاطعات عليه أن يقطعها ؟ لا يتذكر عددها... ما اسم الشارع الذى يقطن فيه ؟ إنه لا يتذكر ، فقد ضاع ذلك من ذهنه تحت ظروف خوفه وتوتره ، وخاصة أنه حديث عهد بالمدينة وبسكنه. فجأة وجد جدار المبنى الذى يلامسه قد انتهى... علم أن أمامه تقاطع ... قرر المجازفة وعبور الشارع ... نزل من الرصيف ، وسار عبر الطريق ، وهو يحرك مظلته المقفلة أمامه يمنة ويسرى حتى لامست رصيفا آخر ، صعد الرصيف وسار حتى لامست مظلته جدارا ... إستمر فى السير وجدر المنازل على يمينه ... الجو خانق ... يشعر بجفاف فى حلقه ورغبة فى السعال ، وسيولة فى أنفه وجفاف فى فمه ... يخرج منديله ... يمسح وجهه وأنفه ... لم يكن يشعر بمبادئ زكام أو نوبة برد ... لعل فى الجو ما يثير أغشيته المخاطية !!! واصل سيره وعبر تقاطعا آخر كما عبر سابقه. إستمر فى سيره ، ثم تساءل فى نفسه كيف سيتعرف على شارعه

الذى سينحرف عنده ... تخبط فى أمواج من اليأس ... لا فائدة من مواصلة السير ... جلس على قارعة الطريق بجوار أحد الجدران... أدمعت عيناه ، هل ذلك حزنا على عجزه أو ما وصل إليه حاله ، أم أن ذلك راجع إلى ما بالجو من مواد مهيجة؟ هو تائه فى بلد غريب ، وفى ظروف جوية تختلف عن الظروف الجوية التى إعتاد المعيشة فيها ...إنتقل من منطقة استوائية إلى منطقة باردة... إنتقل من جو ريفى نظيف ملىء بالخضرة إلى جو صناعى كئيب ملوث. جلس يندب سوء حظه ويشعر بالندم على حضوره ... هل أنا فى مركز دول الكمنولث البريطانى التى لا تغيب الشمس عنها ؟ أم أن مركزها أسوأها ... إن النهاية قد قربت !! فكر فى زوجته وأولاده الذين تركهم فى بلاده سيريلانكا. استمر على هذا الحال أكثر من ثلاثة ساعات ، وقد اجتمعت عليه كل عوامل التعاسة واليأس والبؤس مع خوف من المجهول وإحساس بالبرد وشعور بالجوع.

بدأ الظلام الدامس فى الانقشاع رويدا رويدا ، وبدأ ضياء مصابيح الشارع فى الوصول إلى أرضية الطريق باهتة ضعيفة فى المبدأ ...

تمكن من رؤية كفه عند تقريب يده إليه ... قام من جلسته القرفصاء على الرصيف بجانب جدار ... عاد إليه الأمل ... سار فى الطريق فى الاتجاه الذى يعتقد بأنه الموصل إلى سكنه ... أخرج ورقة من جيبه ، كان قد كتب فيها عنوان سكنه ... إستطاع أن يقرأ ما بها... سأل أول قادم فى الطريق عن اسم الشارع الذى يسير فيه ، فاكتشف أنه انحرف عن الطريق الرئيسى الذى تقع به الجامعة ، والذى ظن أنه لم يبارحه إلى طريق آخر ، سأل بعد ذلك أكثر من شخص ، حتى تمكن أخيرا من الوصول إلى سكنه ، وكان ذلك فى العاشرة مساء بعد أن أمضى حوالى ستة ساعات فى الطريق وهو فى حالة رعب شديد.

فى سكنه ، وجد صديقه الهندى وقد سبقه إلى المنزل منذ أكثر من ثلاثة ساعات. ضحك صديقه وقال لداز : أنظر إلى المرآه ... يا للعجب ، إن وجه قد غطى بهباب أسود إلا فى خطوط غير منتظمة قد أزيل عنها الهباب جزئيا بمنديله أو بحركة يده على وجهه ... لقد أصبح وجهه مكتسيا بالسواد كأوجه جدر مبانى المدينة !! أخرج داز منديله فوجده أسودا متفحما.

استفسر داز عن هذه الظاهرة التى شاهدها لأول مرة فى حياته ، فقيل له إنها حالة سموج smog ... لم يسمع عن هذا المصطلح قبل ذلك ... فتساءل عن معناه وأسبابه فقيل له كلمة smog مصطلح حديث ناتج عن إدماج جزئين من كلمتى smoke بمعنى دخان و fog بمعنى ضباب ، ولهذا فإنهم عندما أرادوا تعريب هذا المصطلح أدمجوا أيضا جزئين من كلمتى ضباب ودخان وكان نتيجة هذا الإدماج كلمة ضبخن. يحدث الضبخن عادة فى المدن الصناعية عندما يظهر ضباب كثيف قرب سطح الأرض ، أو ما نطلق عليه شبورة ، فيختلط بخار المصانع مع الشبورة ، وفى بلاد الإنجليز يزيد الدخان المتصاعد من مداخن المنازل من شدة تلوث الشبورة واسوادها وانعدام الرؤية ، مما يجعلها كسحابة سوداء تفصل بين أى مصدر للضوء وسطح الأرض.

قال داز : وهل سنعيش هكذا مهددين بهذا الضبخن؟ لقد كدت أهلك الليلة. أجابه صديقه : لا يحدث ذلك كثيراً بهذه الشدة ، لى هنا ثلاث سنوات لم تصادفنى هذه الحالة بهذه الشدة إلا مرة واحدة فى السنة الأولى لحضورى.

قال داز : لعلها تكون الأولى والأخيرة بالنسبة لى ، لقد خطر على بالى وأنا فى هذه الغمة أن أترك الدراسة التى قدمت من أجلها وأعود إلى بلدى ، إن نجوت منها. وما الأسباب التى أدت إلى نوبة السعال وسيولة الأنف وجفاف الحلق والشعور بالاختناق الذى حل بى خلال حدوث الضبخن؟

أجابه صديقه : إن شبورة الضبخن لم تكن محملة بهباب الفحم فحسب ، بل كانت مشبعة بغازات مختلفة نتجت عن احتراق الفحم فى المنازل وعوادم المصانع والسيارات ، ومن هذه الغازات ، غاز ثانى أكسيد الكبريت الخانق والمهيج للأنسجة الغشائية المبطنة للأنف والقصبة الهوائية ، وأول أكسيد الكربون السام ، وأكاسيد كربونية وآزوتية أخرى. مثل هذه الحالات كثيراً ما تضر بكبار السن والمصابين بالربو وغيره من الأمراض الصدرية ، وقد تتسبب فى حالات وفاة.

غسل داز وجهه ويديه جيداً. نزل مع ماء الغسيل هباب كثيف، وكان الماء أسوداً كما كان الوجه أسوداً.

أكل داز عشاءه وأسرع إلى فراشه. نام نوماً عميقاً ، تخللته عدة أحلام مزعجة. استيقظ في الصباح ، وخرج إلى الطريق ذاهباً إلى الجامعة ، ممسكاً بمظلة يتقى بها مياه المطر ، فقد كان الجو مطيراً منعشاً ، غسل هباب الأمس وغسل أوراق الشجر وأعاد للمدينة نظافتها ، إلا أنه لم يغسل جدر المبانى السوداء والتى زادها ضبخن الأمس إسوداداً.

obeikan.com

obeikan.com

سكت دهراً ونطق كفراً

obeikan.com

سكت دهرا ونطق كفرا

عاشت سنين طويلة تنعم بالصحة ، وتغلب على معيشتها الرفاهية والطمأنينة وراحة البال ، وترفرف عليها وعلى أسرتها حلل السعادة. كانت ميسورة الحال ، يلتقى حولها الأبناء والأحفاد مرة كل أسبوع ، وقد اتفقوا على أن يكون موعد اجتماعهم معها مساء كل خميس. حيث يستحب السهر ، فاليوم التالى يوم راحة ، فلا عمل للأبناء والأزواج ولا دراسة للأحفاد.

فى جلساتهم الأسبوعية مع ماما عائشة كبيرة العائلة ، كانوا يتندرون بتصرفات الأطفال وبراءتهم وبشقاوة الأولاد وتحصيلهم ونتائج امتحاناتهم ، كما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث حول أخبار العائلة وحالة الجو ومشاكل الطريق ولا مانع من أخبار المعارف والأصدقاء وأخبار العمل. وكانت أخبار السوق كثيراً ما تجد طريقها فى الحديث ... الأزمات المستحدثة بين الحين والآخر فى بعض المواد

الغذائية ؛ المتوفر منـها والجديـد فيـها. فـى معظـم هـذه التجمعـات يتقابل أزواج البنات مع زوجة الإبن ، وتنقسـم الأسـرة إلى مجـاميع ، كل منها تتحدث فى موضوع ، وكثيراً ما يحدث تداخل فى الحديـث بين مجموعات الأسـرة الكبـيرة ، والأطفـال بينـهم يجـرون ويمرحـون وترتفع صيحاتهم هنا وهناك.

فى مساء أحد أيام الخميس ، فـى أوائـل شـهر أغسـطس والجـو حار والرطوبة مرتفعة ، كانت ماما عائشة راقدة على سـريرها بمنزلهـا بالقاهرة ، يحيط بها بناتها الثلاث ؛ كريمـة ورفيعـة وسميرة وإبنـها حمدى وزوجته رقيـة وزوج إبنتـها الصغـرى رشـيد ، يتحدثـون معـها ويخففون عنها وعكتها ، فقد زارها الطبيب صباح ذلك اليوم. كـانت ماما عائشة تشتكى منذ زمن ليس بالبعيد من آلام فى المفاصل وصعوبـة فى الحركة وخاصة عند صعود السلالم أو النزول عليـها ، كمـا كـانت تشكو من تعب سريع يعقب جهدا بسيطا. إزدادت الشكوى من سـوء الصحة حدة فى الأسبوع السابق ، فقـد اسـتجد عليـها عـرض مرضـى جديد أخافها وأخاف أبناءها ، إذ كانت تشعر بدوار من وقت إلى آخر لا تستطيع معه الوقوف أو الحركة ، فكانت إذا شـعرت بمبـادئ هـذا

الدوار ألقت بنفسها على أقرب مقعد وأغمضت عيناها واسترخت حتى تزول النوبة ، تستريح بعدها فترة ثم تعاود نشاطها.

بصوت خافت دار الحديث ... جملة من هنا وتعليق من هناك... وقفشة من أحدهم ونكتة من آخر ، مرة يكون الكلام عن الصحة والمرض ، وأخرى عن الجو وحرارته ورطوبته ، وثالثة عن شقاوة الأطفال ونوادرهم ، ورابعة عن قسوة الحياة مع الارتفاع الزائد فى الأسعار ، ثم يعود الحديث عن الصحة والمرض وبتركيز خاص عن مرض ماما عائشة

قالت الإبنة الكبرى كريمة :

- ماما لازمها تغيير جو لمدة أسبوع أو أسبوعين ، وأفضلها لذلك الإسكندرية حيث الحرارة أقل ونسيم البحر المنعش سيعيدها إلى صحتها.

علقت الأخت الوسطى رفيعة على ذلك :

- فاكرين فى الصيف الماضى ، فى مثل هذه الأيام حين أمضينا شهرا كاملا فى سيدى بشر بالإسكندرية وكانت ماما تمشى يوميا

أكثر من كيلومتر ذهاباً ومثلها إياباً ، نأكل أثناءها التين الشوكى والذرة المشوية ، ولم تكن ماما تشكو من تعب أو مرض.

أكملت الإبنة الصغيرة سميرة الحديث وقالت :

- هواء البحر أحسن فاتح للشهية ولهذا تجد المصطافين يتزاحمون أمام محال ساندويتشات الفول والفلافل ... الشراء منها لا ينقطع من الصباح حتى ما بعد منتصف الليل ... يستحم المصطافون فى مياه البحر ، وبعد قليل يخرجون لتناول ساندويتش أو أكثر ثم يعودون للماء ثانية وهكذا.

علقت رقية على ذلك بقولها :

- لقد وصف الطبيب لماما عائشة طعاماً خاصاً خالى من الدسم ، فلا يدخل فيه السمن أو الزبد ، وفى المصايف عادة تنشغل الأسرة بالنزهة والاستحمام عن إعداد الطعام ، وغالباً ما يأكلون طعاماً جاهزاً أمثال لقمة القاضى فى الصباح والبيتزا فى المساء ، فهم فى حاجة إلى التغيير بعيداً عن نمط الأكل العادى.

وقال حمدى بعد تفكير فى المصيف وما يحتاجه من ميزانية خاصة ، تزداد عاماً بعد آخر :

- تذكروا قول الطبيب أن رطوبة الجو كانت من أسباب تدهور صحة ماما ، وأن جو المصيف برطوبته لا تلائمها ، والأفضل أن نواظب على تنفيذ وصفة الطبيب من حيث الطعام المسلوق والانتظام فى أخذ الإبر وتناول الحبوب حسب مواعيد كل منها مع الراحة فى المسكن.

هنا خطر على بال رشيد زوج الإبنة الصغرى ، وهو عادة مقل فى كلامه ، مجيد فى إستماعه ، أن يبدى رأياً فقال :

- ماما عائشة ، أطال الله فى عمرها ، تقاسى من أمراض الشيخوخة ، والشيخوخة ليس لها علاج ، إنما أدويتها تعطى لتخفيف أعراضها.

ظهر على البنات الثلاث وعلى أمهم وجوم شديد ، وساد الجميع صمت رهيب ، لم يعقب أحد ، فقد وقعت لفظة الشيخوخة على السيدات وقع الصاعقة ، حتى قطعه حمدى بطلب تجهيز العشاء للجميع ، على أن يكون نصيب ماما عائشة بعض الخضروات المسلوقة الخالية من الملح والمضاف إليها قليل من الزيت والليمون ، ولا مانع

من كوب من اللبن الزبادى وقليل من العنب البناتى ، وذلك وفقاً لتعليمات الطبيب المعالج.

تناول الجميع العشاء وهم يشاهدون إحدى المسلسلات التليفزيونية ، غادروا بعدها منزل العائلة متوجهين إلى منازلهم.

ركبت سميرة مع زوجها رشيد وأولادهما سيارتهما الصغيرة ... التزم كل منهما الصمت ، فرشيد من طبعه السكوت ، وسميرة يبدو عليها الانفعال والغضب. توقع رشيد إنفعالاً موقوتاً قد يحدث فى أى وقت ... إستمر السكوت بينهما حتى وصلا منزلهما ، وانفردا فى حجرة النوم وبدءا فى إستبدال ملابس الخروج بملابس النوم. فجأة بدأ الحديث حاداً عنيفاً.

سميرة : كيف تدعى أن ماما قد بلغت سن الشيخوخة ؟

رشيد: لا تتقولين على ما لم أقله ، فقط كنت أحلل مرضها من وجهة نظرى وأصفه بالشيخوخة ، ولم يرد على لسانى أى ذكر لسنها.

سميرة : وهل يوجد فرق فى المعنى بين قولى وقولك؟ ألست تعنى بأنها مصابة بأمراض الشيخوخة أنها قد بلغت من الكبر درجة متقدمة لدرجة أن أمراضها لا تشفى ؟

رشيد : ولم لا ، فعمرها قد زاد عن السبعين خريفاً.

سميرة : بل هى أصغر من ذلك ، ولم تبلغ بعد السبعين.

رشيد : عموماً لا تغضبى ! فإنه فى الماضى كان لدينا مجلسين نيابيين ، أحدهما كان يسمى مجلس النواب والثانى كان يطلق عليه مجلس الشيوخ ، وكان يسمح بالعضوية فى مجلس الشيوخ اعتباراً من سن الأربعين ، فكأن سن الأربعين هو سن الشيخوخة ، فأمك حتى ولو كانت فى سن الأربعين فإنها بذلك تعتبر شيخة ويسمح لها بعضوية مجلس الشيوخ ، وأختك الكبرى التى تبلغ الخامسة والأربعين هى أيضاً شيخة.

سميرة : آه منك ومن حديثك ، لقد زدت الطينة بلة ، فجعلت أختى أيضاً فى سن الشيخوخة ، وعلى وشك أن تصاب بأمراضها.

رشيد : ألا تعلمين أن صحة الإنسان تصل إلى قمتها قبيل سن الأربعين ، بعدها تبدأ فى التدهور تدريجياً ، ويمكن ملاحظة

ذلك فى الأشخاص ذوى النظر الجيد ، نجدهم بعد هـذا السن يشكون من صعوبة فـى القراءة ويحتـاجون إلى لبس النظارات الطبية.

سميرة : آه لو سمعت أختى منك هذا القول لنالك الويل ثم الويل.

رشيد : آسف إنما كنت فى ذلك مفسراً !

سميرة : لقد تأثرنا جميعـاً مـن تشـخيصك لـمرض ماما بالشيخوخة. صحيح أنه لم يحدث بيننا فى مجلسها كـلام أو تعليـق ، إنمـا نظـرات بعضنـا لبعـض ، وانقطـاع الحديـث ، والوجـوم الـذى أصابنا بعد ما قلت يدل على ذلك ... لقد سـكت دهـراً ، ثـم نطقت كفراً ، وأعتقد أن الكـل منـك غضبـان وعليـك أن تعـالج الأمر وتصحح ما قلت أو تعتذر عنه.

رشيد : لك هذا ، وسأفكر كيف أخرج من هـذا المـأزق الـذى وضعـت نفسى فيه ، فأكثر ما يضايق النساء أن يذكرهـن أحـد بحقيقـة سنهن.

فى الخميس التالى ذهب رشيد وسميرة ، كعادتهم مساء كـل يـوم خميس ، إلى منزل ماما عائشة ، وهناك تقابلا مع باقى أفـراد العائلـة

فى اجتماعهم الأسبوعى. كانت صحة ماما عائشة قد إستجابت للعلاج ، فزالت نوبات الدوار ، وخفت حدة باقى الأعراض المرضية. وكالمعتاد بدأ الحديث بحالة الجو وشدة القيظ وارتفاع حرارة الشمس وصعوبة المواصلات وازدحام الطرقات ، ورشيد كعادته يعلق على الحديث ، بين الحين والآخر ، بعبارات قصيرة أو جمل مقتضبة ، وخلال ذلك كان شغله الشاغل الذى ملك جل تفكيره ، هو الكيفية التى يفتح به موضوع الشيخوخة ، الذى أحدث أزمة ، فى لقاء الخميس السابق ، أزمة وجوم فى منزل العائلة الكبير ، كما أحدث أزمة غضب وانفعال ونقاش حاد فى منزله. يريد أن يفتح الموضوع ، وفى نفس الوقت يخشى عواقب زلة لسانه. هل يتكلم فيزيد الجرح غورا ، أو على رأى المثل " جاء يكحلها فعماها " بعد طول تردد قال رشيد :

- كلكم تعلمون أن أبى كان شيخا من شيوخ الأزهر الشريف ، وكانت أمنيته أن يرى أحد أبنائه شيخا كذلك ، يصبح إمتدادا لشجرة علماء الدين فى العائلة ويستفيد من مكتبة أبى الغنية بعلوم الدين واللغة والآداب. وقد تحقق له ذلك فى أخى الأصغر

الذى أدخله أبى أحد كتاتيب القرية ، حيث تمكن من إتمام حفظ القرآن الكريم وهو لازال فى التاسعة من عمره. دخل أخى بعد ذلك المعهد الدينى الابتدائى فى المدينة ثم واصل دراسته فى المرحلة الثانوية الأزهرية ثم استكمل دراسته فى كلية أصول الدين بالقاهرة ومنها نال إجازة العالمية وأصبح من الدعاة. ومنذ أن حفظ أخى سعد القرآن الكريم ونحن نناديه بالشيخ سعد رغم أن سنه حينذاك لم يتجاوز التاسعة. وقد جاء فى كتاب الأيام للدكتور طه حسين فى حديثه عن صباه أن الصبى أصبح شيخا لأنه حفظ القرآن ، ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن سنه. والآن ، وبعد أن نال أخى سعد العالمية فقد أصبح فى نظرنا شيخا وقورا ، وهو لم يتجاوز عمره الثلاثين عاما. أقول هذا لأفسر لكم ما قصدته فى الأسبوع الماضى بالشيخوخة. الشيخوخة لفظ مستمد من الفعل شاخ ، ومن هذا الفعل إشتق أيضا الإسم شيخ للرجل وشيخة للمرأة ، فالشيخوخة هى الوصول إلى سن الرزانة والوقار والحكمة. وقد يصل الإنسان إلى هذه الحالة فى الثلاثين من عمره ، وقد يحدث ذلك فى الأربعين أو

الخمسين ، وماما عائشة هى دون ذلك بلا شك ، وأمراض الشيخوخة هى أمراض الرزانة والوقار والحكمة ، وليست أمراض السن ، وعلاج هذه الأمراض هى الخروج من الجمود الذى يصحب الرزانة والوقار ، والعزلة التى تصحب كثرة التفكير والحكمة ، ولا ينصلح ذلك إلا بتغيير الجو والذهاب إلى أحد المصايف ، وأقترح لهذا الذهاب إلى الإسكندرية. هناك حيث الجو أفضل وحرارته أخف ونسيم البحر منعش ، ومع التمشية فى طريق الكورنيش على ساحل البحر والاستحمام فى مياه البحر المالحة ، ستزول بعون الله آلام المفاصل وتعود الحركة إلى طبيعتها. وعلى فكرة فقد قررنا أنا وسميرة ومعنا الأولاد أن نذهب إلى الإسكندرية بعد عشرة أيام ، فإذا وافقت ماما عائشة على أن تصحبنا فسنكون بذلك أسعد الناس.

قالت سميرة وهى فخورة بما قاله زوجها ، سعيدة بإقتراحه الذهاب إلى المصيف :

- ألم أقل لكم أن رشيداً رغم قلة كلامه ، إلا أنه ذكى نابه ، لقد صمت دهراً ثم نطق شهداً.

علقت الإبنة الكبرى على كلام رشيد فقالت :

- ما أجمل تصويبك وأحسن تفسيرك.

فقال رشيد ، وقد سره تعليقى سميرة وأختها كريمة على شرحه لكلمة شيخوخة :

- أحب أن أزيد على ما قلت ، ففى دول الخليج العربى يطلقون على أصحاب السلطان والثراء لقب الشيخ إلى أسمائهم ، حتى السيدات منهن فهن شيخات حتى ولو كن فى العشرين من عمرهن ، بمعنى أن الواحدة منهن قد تبلغ مبلغ الشيخوخة بوصولها إلى مركزها الكبير من الثراء أو السلطة ، وليس لذلك أى إرتباط بالسن.

إنفرجت أسارير وجوه الجميع ، وتعالت ضحكاتهم ، وسرت ماما عائشة باقتراح رشيد أن تصحبهم فى المصيف ، وأبدت موافقتها على الذهاب مع رشيد وابنتها وأولادهم إلى الإسكندرية ... تستعيد ذكرياتها وتمشى على شاطئ البحر وتبلل أقدامها بمياه البحر المالحة وتسترد صحتها.

سافرت ماما عائشة مع إبنتها سميرة وزوجها وأولادهما إلى الإسكندرية ... إستأجروا سكناً مفروشاً فى طريق الكورنيش بمنطقة سيدى بشر لمدة خمسة عشر يوماً.

فى اليوم الأول بالإسكندرية ، نزلت العائلة إلى شاطئ البحر المقابل لسكنه وجلسوا تحت مظلة كبيرة لبضع ساعات ؛ الصغار يلهون فى المياه ثم يجلسون على الرمال قريباً من مياه البحر يبنون قصوراً وقلاعاً ثم لا تلبث أن تأتى موجة مرتفعة تهدم ما تفننوا فيه وشيدوه من أبنية ، وهكذا يعاودون البناء ويعود الموج فى هدم أبنيتهم، وهم فرحون بذلك ، وأمهم ترقبهم وترعاهم ، والأب يلاحظهم تارة ويستحم فى البحر تارة أخرى. وبين الفينة والفينة تذهب ماما عائشة وإبنتهما إلى ساحل البحر يبللان أرجلهما ... يسعدهما تتابع الأمواج وارتطامها بهن ، وأحياناً تأتى موجة عالية تبلل ملابسهما فيجريان بعيداً عن الساحل ثم يعودان. فى المساء تمشيا قليلاً على الشاطئ ثم عادا إلى سكنهما وناما مبكرين بعد أن قضيا يومهم الأول فى بهجة وسرور.

فى يومهم الثانى تجهزوا للنزول بعد أن تناولوا طعام الإفطار ، وقد حملوا معهم غذاء باقى يومهم ، فقد أرادوا أن يتمتعوا بالبحر مدة أطول من اليوم السابق ، لكن ماما عائشة اعتذرت بلباقة قائلة أنها تفضل البقاء بالمنزل ، وأنها ستجلس على مقعد مريح فى شرفة المنزل متمتعة بنسيم البحر حيث تشاهد البحر وجماله من علو وحيث يمتد النظر الى مسافة بعيدة فى البحر. الحقيقة التى لم تذكرها ماما عائشة أنها أحست ، بعد عودتها إلى السكن فى مساء اليوم السابق ، بالإرهاق وعاودتها آلام المفاصل والإحساس بصعوبة الحركة وإيلامها.

فى اليوم الثالث لوجودهم بالمصيف كابرت ماما عائشة ، خوفا من لسان رشيد أن يذكرها بالشيخوخة وأمراضها ، فنزلت معهم إلى شاطئ البحر ، وأمضت النهار بطوله جالسة ومسترخية على أحد مقاعد البحر المريحة ، ثم عادوا جميعا الى المنزل قبيل الغروب ، حيث تركوا ماما عائشة بالمنزل فى المساء لأنها لا تقوى على المشى الطويل ، أما باقى الأسرة فقد عاودوا النزول والتمشية ، وأكل الترمس والذرة المشوية ، ولم ينسوا أن يحضروا معهم كوزا طريا من الذرة المشوية لماما عائشة .

فى صباح اليوم الرابع ، نفذ صبر ماما عائشة ، فأعلنت شدة مرضها ، فأحضروا لها طبيبا ، نصحها بالعودة الى القاهرة ، فجو البحر ورطوبتها لا يتلاءمان مع صحتها ، كما أنها تحتاج إلى فترات راحة طويلة تستلقى فيه على سريرها . فهى لا يمكنها المكوث طويلا على مقعد بالشرفة أو الشاطىء. لم توافق ماما عائشة على العودة إلى القاهرة وفضلت البقاء بالإسكندرية مع الراحة بالمنزل وتعاطى الأدوية بإنتظام حتى لا تفسد على الأسرة مصيفها وعلى الأولاد بهجتهم.

إنقضت فترة الخمسة عشر يوما ، لازمت فيها ماما عائشة فراشها معظم الوقت ، وترقب البحر من شرفة بالمنزل بعض الوقت ، وعادوا جميعا إلى القاهرة ، وهى تعترف فى قرارة نفسها بحقيقة سنها، تستعيد ذكريات أيام الطفولة والصبا والشباب والكهولة وقد صارت إلى الشيخوخة ، فهى بالفعل تقاسى من سنى الشيخوخة وأمراضها ، ولكنها لا تحب أن تسمع من أحد أنها مصابة بأمراض الشيخوخة.

obeikan.com

عصابة الخمسة

obeikan.com

عصابة الخمسة

قرية لا ككل القرى ... قرية متميزة ... مياهها شافية ... عيونها نافرة ... أرضها جيدة خصبة ... نسيمها لطيف عليل. جمعت قرية العينية بين حناياها الخضرة الزاهية والمياه الوفيرة ... اشتهرت بنخيلها الباسق وبتمورها الفاخرة. يضرب بهذه القرية الأمثال فى وفرة الخيرات ، فقيل "إرتويت وزهيت وفى العينية نميت" ، كما قيل "الميه الحلوة من العينية جاية" ، فحدائقها الغناء تنتج بجانب التمور ، التين والرمان ، كما يجود بها العنب واليوسفى والبرتقال.

نشأ كمال فى قريته الغناء بين خضرة المزروعات وجريان الماء ، بين جَمال الطبيعة والجِمال التى تنقل مستلزمات الزراعة ومنتجاتها. تعلم فيها فى صغره ... وعاش بقربها فى كبره ... وتوظف فى أحد مؤسسات عاصمة بلده.

بلغ كمال مبلغ الشباب ، فكر فى الزواج ، لكن الحيرة غلبته ، كيف يختار من تشاركه حياته وتكون أما لأولاده ؟ ... البنات عندهم ، بعد الطفولة فى خدر مكنون ، وعن الرجال محجوبات. فهو لم ير فى حياته إلا وجوه عدد محدود من النساء . معظمهن من الأقارب المحرمات ، فقد كانت نشأته فى بلدة محافظة ، وعلى التقاليد متمسكة ، ومن تقاليدها تحريم اختلاط الجنسين ... لكل جنس ملكوته الخاصة ، لا يتقابلان إلا فى حدود الأسرة الصغيرة.

لم يكن أمام كمال إلا طريق واحد للزواج . هو أن تقوم والدته باختيار إحدى البنات لتنصبها عروسا لكمال ، ومن تقاليد الأرياف أن تكون الأفضلية لابنة العم ... لم يكن لكمال فى ذلك فرصة اختيار ، فهو لا يعرف بناتا . وليس من صلاحياته رفض إبنة العم. عرف كمال إبنة عمه طفلة تلعب أمامه فى الطريق ، وكانت تصغره ببضع سنين ، فلم تكن من أصدقاء طفولته ، وعندما بلغت العاشرة من عمرها حجبوها ، فكان محرما عليه لقاؤها.

نصبت الزينات ، وذبحت الشياه ، وبسطت الموائد وعقد القران، وأقيمت الأفراح بالطرب والغناء ... مطربات وراقصات عند الحريم ،

وطبل وزمر وغناء عند الرجال. تـزوج كمـال بابنـة عمـه أنيسـة ... جمعهما منزل واحد ... قيل له أن الحب يـأتى بعـد الـزواج ... لم يأنس كمال بأنيسة ، ولم يتفقا فى الطباع والأمزجـة ... دب بينـهما الخلاف ، لكنه خلاف هادئ دون جلبة أو شجار ، أو ما يقـال عنـه عدم إنسجام ، وكإبنة عم تحتم عليه التقاليد والعادات المحافظة علـى كيان الأسرة الصغيرة ، فأمـام الأهـل وبـين الأصدقـاء يلاحـظ الجميـع أسرة متماسكة متفاهمة ، وإذا مـا إختليـا فكثـيرا مـا يظـهر منـهما ود مفقود وحب غير موجود ، فترى كمال قد جلس فى ركـن مـن حجـرة الجلوس يطالع الجرائد والمجلات ، وترى أنيسة جالسـة بعيـدة عنـه مواجهة لجهاز تلفاز ترقب التمثيليـات وتتـابع المسلسـلات ، دون مـا حديث أو تعليق يجمع بين أنيسة وكمال.

كان كمال موسرا ، لديه فوق راتبه من المؤسسة التى يعمل بـها ، إيرادا خارجيا سخيا من تجارة خاصة به ، ومصروفه ومصـروف بيتـه فى بلده محدود ، فلا نزهة ولا متنزهات إلا فى الجلوس بين الخضرة والمياه ، وزيارة الأهل والأصدقاء ، أو الخروج إلى الصحـراء لقضاء فترة

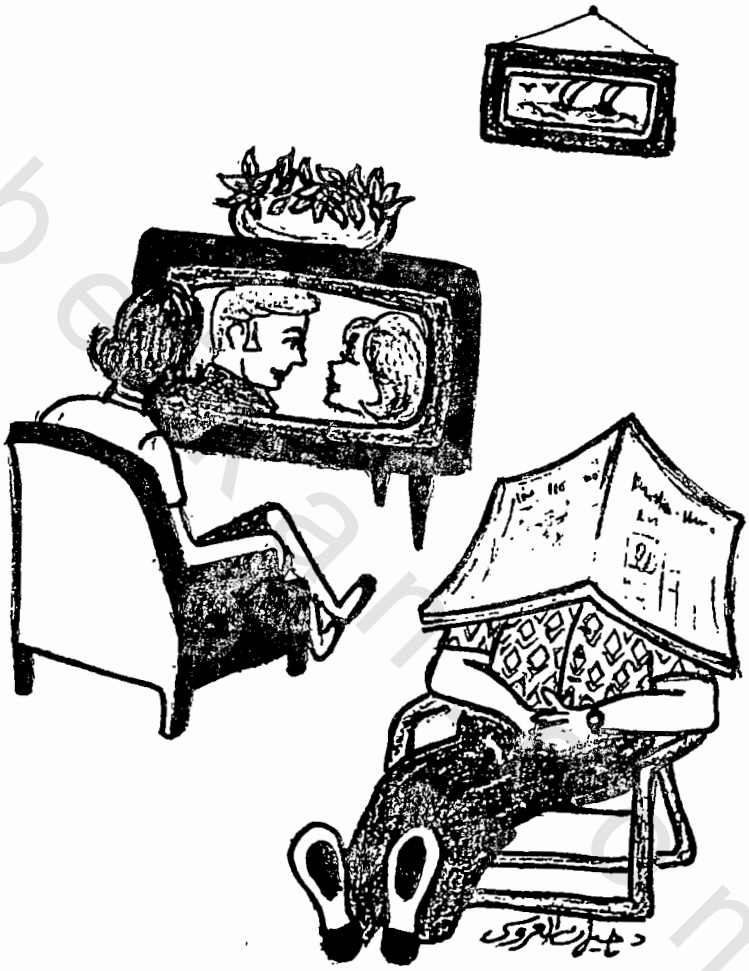

فى الخلاء يقضيها فى التفكير فى أمور دنياه حاليا والتدبير لما يمكن عمله مستقبلا.

بلغ كمال الخامسة والعشرين ، وخلال ربع القرن الذى مضى عليه من الزمان كانت معلومات كمال عن العالم خارج حدود بلده مصدرها وسائل الإعلام من تلفاز ومذياع وجرائد ومجلات. ولهذا بدأ كمال فى التفكير فى مشاهدة الأمصار خارج بلده ... خاصة أن معه من المال ما يفيض عن متطلباته ... ولديه من عدم الوفاق الأسرى ما يحفزه على الابتعاد عن بيته وبلده . فيرى على أرض الواقع ما يشاهده تصويرا فى مختلف وسائل الإعلام. اتخذ كمال قراره وأخبر أهله وخلانه أنه مسافر لإحضار بعض البضائع الخاصة بتجارته ، ينتقيها بنفسه . بدلا من الاعتماد فى ذلك على الوسطاء وتجار الجملة.

سافر كمال إلى إحدى الدول المجاورة ، فسر أيما سرور من تلك التجربة ، فقد خرج لأول مرة عن منوال حياته الرتيبة ، وشاهد من عادات سكان تلك البلاد ما ينكره أهل بلده ، ولا مانع من مزج التجارة بالسياحة ، والجمع بين العمل والمتعة. عاد إلى بلدته بعد أن

تعاقد على صفقة تجارية وتعرف على شعب غير شعبه ، وتقاليد غير تقاليد بلده ، ولم ينس أن يحمل معه عند عودته الهدايا للأهل والزوجة ، إرضاءا لهم وتعويضا عن تغيبه وكسبا لمودتهم.

لم يمر شهر على عودته من سفرته الأولى للخارج حتى سافر ثانية إلى بلد آخر. استمرأ كمال السفر والترحال ، فأصبح لا يعود من رحلة حتى يدبر أمر رحلة تالية. جذبه للسفر إباحة المحرمات ، ودفعه إليها ما يلاقيه من زوجته من برود فى المعاملات ومن توتر بينهما فى العلاقات. كان كمال أثناء وجوده خارج بلاده يتهرب من أبناء بلده يهرب منهم ولا يحب مخالطتهم ولا يرغب فى رؤيتهم ، فلا يريد له رقيبا يتعرف على تحركاته وممارساته ويشى به ويحكى لغيره ما يفعله فى سفرياته.

فى إحدى سفرياته إلى أحد العواصم ، ذهب كمال إلى ملهى ليلى... اختار مائدة جانبية قريبة من المدخل ... طلب مشروبا باردا ... جاءه المشروب ومعه قليل من مكعبات الثلج وبعض المشهيات ... يشرب من كأسه قليلا قليلا ... يتناول بين الحين والحين صنفا أو آخر من المشهيات ... يمضغه على مهل ، فهو ليس

فى عجلة من أمره ، فاللهى به من النساء ما يزيد عما به من الرجال... البعض منهن كان يمر بين الموائد لخدمة ضيوف الملهى... والبعض يقدم استعراضا يرفه به عن الموجودين ... الاستعراض يختلف بين الحين والآخر ، فقد يكون رقصا جماعيا ، وقد يكون غناءا ، وقد يكون فى صورة تمثيلية قصيرة ، وغالبا ما يكون رقصا انفراديا تهتز فيه الراقصة على دق الطبول والدفوف ، فالطبال فى فرقة الموسيقى هو ضابط الإيقاع للفرقة فى حالة الرقص الشرقى ، وهو الذى يجلى الراقصة ويحركها ويحدد هزاتها كيفا وسرعة.

فى أحد فترات الراحة بين المتنوعات الاستعراضية ، سمع كمال أصواتا نسائية عند مدخل الملهى ... أصوات تذمر وغضب واحتجاج... تصنت للأصوات لعله يعرف طبيعة ما يحدث بالخارج... سأل النادل فعرف منه أن بعض النساء بالخارج يرغبن فى دخول الملهى وأن الحارس الواقف على الباب يحول بينهن وبين الدخول.

كان كمال للجنس الآخر حساسا ، ولطلباته مستسلما ، ولصحبته راغبا ، باستثناء زوجته التى هو عنها زاهد. ذهب كمال إلى مدخل الملهى واستفسر عن أسباب النزاع ، فقيل له إن النسوة يرغبن فى دخول الملهى دون دفع رسوم الدخول. ظهر فى الحال كرم كمال الحاتمى وشهامة أريحيته ، فأخرج حافظة نقوده ودفع رسوم دخول النسوة الثلاث. أضاف كمال إلى كرمه كرما ثانيا ، فدعاهن إلى مائدته ... لم يترددن ، بل قبلن الدعوة فى الحال ، فهو الشهم الكريم ، صاحب الفضل عليهن فى التمكن من قضاء سهرة طرب وليلة أنس ، وهن فى نفس الوقت مفلسات ؛ لا يمتلكن رسم الدخول ولا قيمة المشروبات ، وكمال فى نظرهن الفارس الجواد ، المنقذ المقدام ، صاحب المال والجاه.

تم التعارف بينهم سريعا ، فالأولى سمراء وكانت متوسطة الطول رشيقة القوام سمراء اللون ، والثانية زكية وكانت غضة الجسم بيضاء اللون ، والثالثة عفراء وكانت قصيرة إلا أنها كانت صاحبة فكاهة ولحديثها طلاوة ، وقوامها ممشوق وخصرها دقيق وبها لمسة جمال. طلب كمال لهن زجاجة من عرقى البلح ، فهو يفضله على غيره من

أصناف الخمور ، إذ أنه يصنع من التمور ، وهو للتمور عاشق منذ كان صبيا فى العينية. شاركهن شرب الخمر حتى لعب الخمر برأسه ، ورغم أن النسوة فقنه فى الشرب كما ، إلا أن آثار الخمر لم يظهر عليهن ، فالخمور بالنسبة لهن كالماء يشربنها كثيرا ، ولا يدفعن فيها قليلا أو كثيرا ، يسكرن مضيفهم وهن لا يسكرن.

قارب الليل على الانتصاف ، وكانت له رغبة فى تكملة الليلة مع عفراء ، لكنه احتار كيف يبدأ الحديث ... جمع شجاعته ، وأبدى رغبته ودار بينهم ذلك الحوار :

كمال : الحقيقة التى لا شك فيها ، أنى سعدت كثيرا بلقائكم وبالسهرة الجميلة التى متعتمونى بها. ورب صدفة خير من ميعاد ، ولا أدرى إن كان فى الإمكان تكرار هذه السهرة ، إلا أنى مسافر باكر ولا أعرف متى ستواتينى فرصة للعودة. فما رأيكم فى تكملة السهرة معى بالفندق ؟

سمراء تريدها ليلة حمراء ؟

عفراء : ليس هناك أحمر منك ... لقد إحمرت أذناك من كثرة ما شربت وضحكت.

زكية : اليوم خمر وغدا أمر.

عفراء : اليوم خمر وغدا خمر ... ولنا مع كمال أمر.

زكية : أم تعنين أن لك أنت يا عفراء مع كمال أمر .

كمال : لقد أحست زكية بنياتى . وكشفت أوراقى . فأنا فعلا أشعر بحنين ورغبة نحو عفراء ...

زكية : نحسدك يا عفراء على هذا الحب الخاطف والرضاء العالى واختيار كمال لك وتفضيله لك علينا.

عفراء : نصيبى كده وحظى مع كمال اكتمل.

كمال : لكن جميعا منزلة غالية عندى . فليلتى هذه من الليالى التى لا تنسى . لكن الحب قدر مكتوب.

سمراء : نحن ثلاثة والذهاب معك إلى الفندق منتقد وغير مرغوب.

زكية : ولن يصرحوا لنا بالولوج إلا بعد دفع رسوم الدخول.

سمراء : كفاك هزلا يا زكية ... فالأمر جد ، وكمال يستحق منا كل خير . وقد بدأنا بالمعروف ... فما رأيكم أن نذهب سويا إلى منزلنا ؟ فنحن نعيش ثلاثتنا فى منزل واحد . ليس لنا فيه شريك.

عفراء : ولا عزول ، وديك بين الفروج مرغوب.

كمال : فكرة سليمة ولا مانع لدى.

دفع كمال الحساب ... خرج الأربعة من الملهى. كان بالخارج تاكسى سهران فى انتظار زبون سكران.

جلست سمراء فى المقعد الأمامى بجوار سائق التاكسى ، وجلس كمال فى المقعد الخلفى محاصرا بين زكية وعفراء. كانت سمراء دليل السائق ، توجهه مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار حتى غادر التاكسى العاصمة ... وكمال نصف تائه ... لا يعرف من طريقه شيء ، فهو عن المكان غريب وبفعل ما شرب فى الملهى لا يستطيع التركيز ، وقفشات عفراء وقهقهات زكية تلهيه عن رؤية الطريق. واصل التاكسى سيره فى طريق خلوى ، لا يمكن الحكم عليه ، هل هو طريق زراعى أو طريق صحراوى ... فالليل دامس والقمر محاق. مضت حوالى نصف الساعة ... ظهرت بعض البيوت القديمة ... وقف التاكسى أمام إحداها. طلب كمال من سائق التاكسى الانتظار حتى الصباح واعدا إياه بمكافأة سخية.

دخل كمال بصحبة النسوة إلى داخل الدار ... جلسوا جميعا فى جلسة عربية بحجرة استقبال.

سمراء : مرحبا بك فى بيتك.

عفراء : خذ راحتك يا زوج الثلاثة.

كمال : أنا زوج الأربعة ... الرابعة !! أقصد الأولى ، بانتظارى فى بلدتى .

زكية : يا بخت إمرأتك بك ... فلوس وصحة وشباب.

عفراء : مين المحظية ؟

كمال : الحكم الليلة بعد المداولة .

سمراء : قوموا يا بنات نجهز حاجات السهرة.

تقوم عفراء وزكية ويذهبن مع سمراء إلى المطبخ ، ويحضرن بعض الجبن والزيتون والبيض المسلوق وشرائح من الخيار والطماطم ، ثم تطلب سمراء من كمال بعض النقود لإحضار بعض الشراب.

تخرج سمراء وتنادى على بقال مجاور لازال محله مفتوحا فى إنتظار زبائن ما بعد منتصف الليل. يحضر البقال إلى المنزل فتطلب منه سمراء البيرة المثلجة ، فيحضرها بعد قليل.

يتمتع الأربعة بالشراب مع العشاء ... يشعر كمال برغبة فى النوم ، لكنه يقاوم النعاس ، فهو لا يريد أن ينام قبل أن يحقق رغبته وينال مبتغاه. يهمس كمال فى أذن عفراء طالبا الاختلاء بها فى حجرة مجاورة ... تلاطفه عفراء ، وتماطل دون ما رفض منها ، مرسخة لديه الأمل الكبير فى تحقيق مراده بالحركة واللمسة والكلمة. ويجرى الحوار التالى :

عفراء : لم الاستعجال ؟ الليل طويل ، وكلنا فى حوذتك ... أنت بيننا السلطان ... طلباتك أوامر ، لازمة التنفيذ ... وحتى نستكمل المتعة لابد لنا من زجاجة فودكا.

سمراء : أعطنى المال يا كمال لأحضر فودكا ، ولا تحلو الفودكا إلا مع الكافيار ، والبقال لديه نوع مستورد ممتاز من بلاد القوقاز... ومن المؤكد أنك تعرف فائدة الكافيار فى ليالى الأنس الحمراء.

كمال : هاك ما تبغين ٠

شرب كمال من الفودكا ما شرب وأكل من الكافيار ما أكل ، حتى انتفخ كرشه وأغمضت عيناه ، ولم يستطع مقاومة النعاس ، وراح فى سبات عميق ، والنسوة حوله جالسات يقظات فقد اعتدن النوم نهارا والاستيقاظ ليلا ٠٠٠ الفريسة التى تم اصطيادها قد نضجت وحان وقت قطافها ٠٠٠ تحركت أصابع عصابة الثلاثة نسوة تبحثن فى ملابس كمال ٠٠٠ أخذن منها ما بقى من نقود ، لم يكتفين بذلك، فانتزعن من يده ساعته الذهبية ، ثم من الإصبع الأوسط ليده اليمنى أخذن خاتما ذهبيا سميكا له فص من المرجان ، حتى خاتم زواجه لم يتركنه وأخذنه من خنصر يده اليسرى ٠٠٠ وهو مخدر فى نومه العميق لا يعى شيئا مما يدور حوله٠

نادت سمراء على البقال وسائق التاكسى ، فهما مع النسوة الثلاث يشكلان عصابة الخمسة٠ أعطت سمراء السائق أجر العودة ، ثم حمل السائق والبقال كمالا ووضعاه فى المقعد الخلفى من التاكسى٠ خلال جولة العودة إلى العاصمة فاق كمال من سباته وأحس بفعلته ، وعلم بما حدث له٠ تظاهر السائق بالأسى على ما حدث ، وقال

لكمال " إحمد الله أنك عدت سالما معافا ... خسارة المال أخف على الإنسان من خسارة الأبدان ".

صباح اليوم التالى سافر كمال إلى بلدته ، بعد أن حمد الله أن أجر الفندق كان قد سدد مقدما ، وأنه قد حفظ جواز سفره وبعض الشيكات السياحية وتذكرة عودته بالطائرة لدى أمانات الفندق.

إستغرق كمال فى التفكير فى الكيفية التى تم بها خداعه ... كيف صرف على النسوة الثلاث مالا وفيرا ولم يكتفين بذلك ، بل سرقن أيضا ما تبقى معه من مال ومجوهرات !! ... هل يتحقق عليه المثل " نهاية خدمة الغز علقة ". كيف يفسر لزوجته اختفاء خاتم الزواج والخاتم الثمين والساعة الذهبية ؟ أسئلة سوف تثار ولا يدرى كيف يجيب. أيقول الحقيقة فتكون الفضيحة التى قد تنتهى بتفكك الأسرة ، أم يكذب ويؤلف لذلك قصة تنجيه ... تملكه التفكير العميق ولم يصل بعد إلى قرار وخاتمة تنقذه وتحفظ عليه كرامته.

obeikan.com